تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء الثامن عشر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى
١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

الجزء الثامن عشر

سورة المؤمنون

هى مكية وقد نزلت بعد سورة الأنبياء ، وعدد آيها ثمانى عشرة ومائة .

وقد روى أن بعض الصحابة قالوا لعائشة : كيف كان خُلُق رسول الله ؟ قالت: كان خلقه القرآن ، ثم قرأت : « قد أفلح المؤمنون ـ حتى انتهت إلى ـ والذين هم على صلواتهم يحافظون » هكذا كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ووجه المناسبة بينها و بين ما قبلها من وجوه :

(١) إنه تعالى ختم السورة السابقة بخطاب المؤمنين وأمرهم بإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة وفعل الخيرات لعلهم يفلحون ـ وحقق فلاحهم فى بدء هذه السورة .

(٢) إنه تكلم فى كل من السورتين فى النشأة الأولى وجعل ذلك دليلا على البعث والنشور .

(٣) إن فى كل من السورتين قصصا للأنبياء الماضين وأممهم وقد ذكره عبرة للحاضرين .

(٤) إنه نصب فى كل منهما أدلة على وجود الخالق ووحدانيته .

بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)

شرح المفردات

الفلاح : الظفر بالمراد ، وأفلح : دخل فى الفلاح ؛ كأبشر دخل فى البشارة ، والمؤمن : هو المصدق بما جاء عن ربه على لسان نبيه من التوحيد والنبوة والبعث والجزاء ، والخاشع : هو الخاضع المتذلل مع خوف وسكون للجوارح ، واللغو : هُجْر القول وقبيحه ، والزكاة : تزكية النفس وطهارتها بفعل العبادة المالية . والفرج : سوءة الرجل والمرأة ، وحفظه : التعفف عن الحرام ، وابتغى : طلب ، وراء ذلك : أى غير ذلك ، والعادون : أى المتناهون فى العدوان ومجاوزة الحدود الشرعية ، والأمانات : واحدها أمانة، وهى ما ائتمن المرء عليه من قِبَل الله كالتكاليف الشرعية ، أو من قِبَل الناس كالأموال المودعة لديه والنذور والعقود ونحوها ، والعهد : ما عقده الإنسان على نفسه مما يقربه إلى ربه، وما أمر به الله كما قال : « الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا » والرعى : الحفظ . والراعى : القائم على الشىء لحفظه وإصلاحه ، يحافظون : أى يواظبون عليها ، والفردوس : أعلى الجنة .

الإيضاح

حكم الله سبحانه بالفلاح لمن كان جامعا لخصال سبع من خصال الخير :

(١) الإيمان (قد أفلح المؤمنون) أى فاز وسعد المصدقون بالله ورسله واليوم الآخر .

(٢) الخشوع فى الصلاة (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) أى الذين هم مخبتون لله أذلاء منقادون له خائفون من عذابه ، روى الحاكم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى رافعا بصره إلى السماء ، فلما نزلت هذه الآية رمى ببصره إلى نحو مسجده أى موضع سجوده ، والخشوع واجب على المرء فى الصلاة لوجوه :

(ا) للتدبر فيما يقرأ كما قال : «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» والتدبر لا يكون بدون الوقوف على المعنى كما قال : « وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا » أى لتقف على عجائب أسراره و بديع حكمه وأحكامه .

(ب) لتذكر الله والخوف من وعيده كما قال : « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى » .

(ح) إن المصلى يناجى ربه ، والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة ، ومن ثم قالوا : صلاة بلا خشوع جسد بلا روح ، وجمهور العلماء على أن الخشوع ليس شرطا للخروج من عهدة التكليف وأداء الواجب ، و إنما هو شرط لحصول الثواب عند الله و بلوغ رضوانه .

(٣) الإعراض عن اللغو (والذين هم عن اللغو معرضون) أى والذين يعرضون عن كل ما لا يعنيهم وعن كل كلام ساقط حقُّهُ أن يُلغَى كالكذب والهزل والسب ، إذ لهؤلاء من الجد ما يشغلهم ، فهم فى صلاتهم معرضون عن كل شىء إلا عن خالقهم ، وفى خارجها معرضون عن كل ما لا فائدة فيه ، فهم متجهون للجد وصالح العمل ، فهم قد استفادوا من خشوع الصلاة درسا انتفعوا منه بعدها ، وتخلقوا بأخلاق النبيين والصديقين .

(٤) تطهيرهم لأنفسهم بأداء الزكاة (والذين هم للزكاة فاعلون) أى والذين هم لأجل طهارة أنفسهم وتزكيتها يؤدون المفروض للفقير والمسكين كما قال : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا » وقال : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى » .

(٥) حفظ الفرج (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين) أى والذين يحفظون فروجهم فى كافة الأحوال إلا فى حال تزوجهم أو تسرّيهم (قربان الأمة بالملك) فإنهم حينئذ يكونون غير ملومين ، والمراد بهذا الوصف مدحهم بنهاية العفة والإعراض عن الشهوات .

(فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) أى فمن طلب غير أربع من الحرائر وما شاء من الإماء فأولئك هم المتناهون فى العدوان والمتعدّون لحدود الله .

(٦) رعاية الأمانة والعهد (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) أى والذين إذا ائتمنوا لم يخونوا بل يؤدون الأمانة لأهلها ، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفَوْا بما عاهدوا عليه ، إذ الخيانة وخلف العهد من صفات المنافقين كما جاء فى الحديث : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .

وقصارى ذلك — إنهم يؤدون ما ائتمنوا وعوهدوا عليه من الرب أو العبد كالتكاليف الشرعية والأموال المودعة والعقود التى عاقدوا الناس عليها .

(٧) المحافظة على الصلوات (والذين هم على صلواتهم يحافظون) أى والذين يواظبون عليها على أكمل وجه فى الأوقات التى رسمها الدين ، روى عن ابن مسعود أنه قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله : أى العمل أحب إلى الله ؟ قال: الصلاة على وقتها ، قلت ثم أىّ ؟ قال برّ الدين، قلت ثم أىّ ؟ قال الجهاد فى سبيل الله » رواه الشيخان .

وقد افتتح سبحانه هذه الصفات الحميدة بالصلاة واختتمها بالصلاة ، دلالة على عظيم فضلها ، وكبير مناقبها ، وقد ورد فى الحديث : «اعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » .

ولما كان الجزاء فى الآخرة نتيجة للعمل فى الدنيا ، وما فيها من نعيم حصادٌ لما زرع فيها ، رتب على ذلك قوله :

(أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) أى أولئك المؤمنون الذين تحلوا بتلك الخلال السامية جديرون بأن يتبوءوا أرفع مراتب الجنات كِفاء ما زينوا به أنفسهم من الأخلاق الفاضلة ، والآداب العالية ، ويبقون خالدين فيها أبدا لايخرجون منها ولا يموتون .

وقصارى ما سلف — إن فلاح المؤمن موقوف على اتصافه بتلك الصفات السامية العالية القدر ، العظيمة الأثر فى حياته الروحية ، وكمالاته النفسية ، روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحى يسمع عند وجهه دوىّ كدوىّ النحل ، فأنزل عليه يوما فمكث ساعة ثم سرّى عنه فاستقبل القبلة فقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وأرضنا وارض عنا ، ثم قال لقد أنزل علىّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ : قد أفلح المؤمنون حتى ختم العشر » .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) .

شرح المفردات

السلالة : ما سلّ من الشىء واستخرج منه ، وتارة تكون مقصودة كخلاصات الأشياء كالزبد من اللبن ، وتارة تكون غير مقصودة كقُلامة الظفر وكُناسة البيت

وقرار : أى مستقر ، مكين : أى متمكن ، والعلقة : الدم الجامد ، والمضغة : قطعة اللحم قدر ما يمضغ ، تبارك الله : أى تعالى وتقدس .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال السعداء المفلحين - قفى على ذلك بذكر مبدئهم ومآل أمرهم وأمر غيرهم من بنى الإنسان ، وفى هذا إعظام للمنة وحث على الاتصاف بحميد الصفات وتحمل مئونة التكاليف ، ثم ذكر أن كل ذلك منتهٍ إلى غاية هى يوم القيامة الذى تبعثون وتحاسبون فيه على أعمالكم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

الإيضاح

(ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) أى ولقد خلقنا أصل هذا النوع وأول أفراده ، وهو آدم عليه السلام من صفوة طين لا كدر فيه .

ويرى جماعة من المفسرين : أن المراد بالإنسان هنا ولد آدم وهم يقولون : إن النطف تتوالد من الدم الحادث من الأغذية وهى إما حيوانية وإما نباتية ، والحيوانية تنتهى إلى نباتية ، والنبات يتوالد من صفو الأرض والماء ، فالإنسان على الحقيقة متوالد من سلالة من طين ، ثم تواردت على تلك السلائل أطوار الخلقة إلى أن صارت نطفا .

(ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين) أى ثم جعلنا نسله نطفا فى أصلاب الآباء ، ثم قذفت إلى الأرحام فصارت فى حرز حصين من وقت الحمل إلى حين الولادة .

ونحو الآية قوله : « أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِى قَرَارٍ مَكِينٍ » .

(ثم خلقنا النطفة علقة) أى ثم حولنا النطفة من صفتها الثانية إلى صفة العلقة وهى الدم الجامد .

(فخلقنا العلقة مضغة) أى ثم جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أى قطعة لحم بمقدار ما يمضغ .

(فخلقنا المضغة عظاما) أى فصيرناها كذلك ، وميزنا بين أجزائها ، فما كان منها من العناصر الداخلة فى تكوين العظام جعلناه عظاما ، وما كان من مواد اللحم جعلناه لحما ، والمواد الغذائية شاملة لذلك ومنبثة فى الدم ، ومن ثم قال :

(فكسونا العظام لحما) وقد جعل اللحم كسوة لها ، من قبل أنه يستر العظام فأشبه بالكسوة الساترة للجسم .

(ثم أنشأناه خلقا آخر) مباينا للخلق الأول ، إذ نفخنا فيه الروح وجعلناه حيوانا بعد ما كان أشبه بالجماد ، ناطقا سميعا بصيرا وأودعنا فيه من الغرائب ظاهرها وباطنها ما لا يحصى .

وقد قال العلماء : إن جميع أعضاء الإنسان مقسمة تقسيما دقيقا على نسب معينة مقيسة بشبره ، فطوله ثمانية أشبار بشبره ، وإذا مدّ يديه إلى أعلى كان عشرة أشبار بقياسه ، وإذا مد يديه إلى الجانبين كان طولهما كطوله على السواء ، ومن ثم جعل المصريون أصل المقاييس الشبر ، وجعلوا كل ضلع من أضلاع الهرم الأكبر بالجيزة ألف شبر بشبر الإنسان .

(فتبارك الله أحسن الخالقين) أى فتنزه ربنا جلت قدرته ، وهو أحسن المقدرين المصورين .

عن أنس قال : قال عمر « وافقت ربى فى أربع ، قلت يا رسول الله لو صلينا خلف المقام فأنزل الله « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » وقلت يا رسول الله لو اتخذت على نسائك حجابا فإنه يدخل عليك البر والفاجر فأنزل الله « وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ » وقلت لأزواج النبى صلى الله عليه وسلم لتنتهن أو ليبدلنه الله أزواجا خيرا منكن فنزلت « عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ » الآية ونزلت « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ ـ إلى قوله ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فقلت فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت يا عمر أخرجه الطيالسى .

(ثم إنكم بعد ذلك لميتون) أى ثم إنكم بعد النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت .

(ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) من قبوركم للحساب ثم المجازاة بالثواب والعقاب ، إذ يوفى كل عامل جزاء عمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

وخلاصة ماتقدم — إنه تعالى بعد أن ذكر أنه كلف عباده بما كلف ـ بين أن هذه التكاليف شكر من الإنسان لربه الذى أنشأه النشأة الأولى وقلبه فى أطوار مختلفة حتى أوصله إلى طور هو غاية كماله فأصبح قادرا على تكليفه بتلك التكاليف ، ولابد له من طور يستحق فيه الجزاء على ما كلف به وهو طور البعث بعد الموت يوم القيامة .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧).

شرح المفردات

الطرائق : السموات واحدها طريقة أى مطروق بعضها فوق بعض ؛ من قولهم طارق بين ثوبين : إذا لبس ثوبا فوق ثوب ، قال الخليل والزجاج : وهـذا كقوله «أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقاً» وقوله : «اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْماً» والخلق : أى المخلوقات التى منها السموات السبع ، غافلين : أى مهملين أمرها كما قال : «يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه خلق الإنسان فى أطواره المختلفة واستدل بذلك على قدرته وتفرده بالتصرف فى الملك والملكوت ـ أردفه ببيان ما يحتاج إليه فى بقائه لما فيه من المنافع التى لاغنى له عنها .

الإيضاح

(ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق) أى ولقد خلقنا فوقكم سبع سموات بعضها فوق بعض وهى أيضا طرق الكواكب المعروفة عند البشر قديما ، وهناك طرائق أخرى عرفها الناس حديثا :

(وما كنا عن الخلق غافلين) أى وما كنا عن المخلوقات ـ سواء كانت هذه الطرائق أو غيرها ـ غافلين عن أمرها ، إذ تسير الكواكب فى تلك الطرائق بحساب منتظم ، ولو أهملناها لاختل توازنها وسار كل كوكب فى غير مداره أو زل نجم عن سنن سيره ، ففسد النظام العام للعالم العلوى والعالم الأرضى .

والخلاصة — إنا خلقنا السموات لمنافعهم ، ولسنا غافلين عن مصالحهم ، بل نفيض عليهم ماتقتضيه الحكمة ، فخلقها دال على كمال قدرتنا ، وتدبير أمرها دال على كمال علمنا .

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (٢٠) .

شرح المفردات

السماء : هنا السحاب ، بقدر : أى بتقدير خاص وهو مقدار كفايتهم ، فأسكناه فى الأرض : أى جعلناه ثابتا قارا فيها ، والذهاب : الإزالة إما بإخراجه من المائية أو بتغويره فى الأرض بحيث لايمكن استخراجه، والشجرة: هى الزيتون ، وطورسيناء: هو جبل الطور الذى ناجى فيه موسى ربه ويسمى طور سينين أيضا ، والصبغ : مايصبغ فيه الخبز أى يغمس فيه للائتدام ، قال فى المُغْرب : يقال صبغ الثوب بصبغ حسن وصباغ حسن ، ومنه الصِّبغ والصباغ من الإدام لأن الخبز يغمس فيه ويلوّن به كالخل والزيت .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن من دلائل قدرته خلق الطرائق السبع ـ قفى على ذلك ببيان ما فيها من منافع للإنسان ، فمنها ينزل الماء الذى به تنشأ الجنات من النخيل والأعناب وكثير من أشجار الفاكهة التى تؤكل ، وينبت به شجر الزيتون الذى يؤخذ من ثمره الزيت الذى يتخذ دهنا للأجسام ، وإداما فى الطعام .

الإيضاح

(وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض) أى وأنزلنا من السحاب مطرا بقدر الحاجة ، لاهو بالكثير فيفسد الأرض ، ولا هو بالقليل فلا يكفى الزرع والثمار ، حتى إن الأرضين التى تحتاج إلى ماء كثير لزرعها ولا تحتمل تربتها إنزال المطر عليها يساق إليها الماء من بلاد أخرى كما فى أرض مصر ، ويقال لمثلها (الأرض الجرز) فيساق إليها ماء النيل حاملا معه الطين الأحمر (الغِرْيَن) يجترفه من بلاد الحبشة فى زمن الأمطار فيستقر فيها ويكون سمادا لها ونافعا لزرعها .

وبعض هذا الماء يسكن فى الأرض فيتغذى به ما فيها من الحب والنوى ، ومنه

تتكون الآبار والعيون التى تمر على معادن مختلفة، فتتشكل بأشكالها وتتصف بصفاتها فيكون ماؤها حاويا إما للنوشادر وإما للكبريت وإما للأملاح وهكذا .

(وإنا على ذهاب به لقادرون) أى وإنا على ذهابه وإزالته لقادرون بحيث يتعذر استخراجه، كما كنا قادرين على إنزاله ، ولو شئنا ألا يمطر السحاب لفعلنا ، ولوشئنا لصرفناه عنكم إلى جهات أخرى لاتستفيد منه كالأرضين السبخة والصحارى، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فى الأرض يغور فيها إلى مدى بعيد لاتصلون إليه ولا تنتفعون به ، ولكن بلطفنا ورحمتنا ننزل عليكم الماء العذب الفرات ونسكنه فى الأرض ونسلكه ينابيع فيها لتسقوا به الزرع والثمار وتشربوا منه أنتم ودوابكم وأنعامكم .

(فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب) أى فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء بساتين فيها نخيل وأعناب .

(لكم فيها فواكه كثيرة) أى لكم فى الجنات فواكه كثيرة تمتعون بها زيادة على ثمرات النخيل والأعناب .

(ومنها تأكلون) أى ومن زروع الجنات وثمارها ترزقون وتحصلون معايشكم ، كما يقال فلان يأكل من حرفة يحترفها، ومن تجارة يتربح بها أى إنها طُعمته وجهته التى منها يحصّل رزقه .

(وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين) أى وأنشأنا لكم شجرة الزيتون التى تنبت فى هذا الجبل بتلك البقعة المباركة وتثمر زيتونا تصنع منه الزيوت التى يدّهن بها وتتخذ إداما للآكلين .

وَإِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكرنا سبحانه بنعمة إنزال الماء من السماء الذى ينبت به جنات النخيل والأعناب والفواكه المختلفة والزيتون ـ أردفها بذكر النعم المختلفة التى سخرها لنا من خلق الحيوان .

الإيضاح

(وإن لكم فى الأنعام لعبرة) أى إن فى خلق الأنعام لعبرة فضلا عن كونها نعمة ، ووجه العبرة فيها أن الدم المتوالد من الأغذية يتحول فى الغدد التى فى الضرع إلى شراب طيب لذيذ الطعم صالح للتغذية، وهذا من أظهر الدلائل على قدرة الخالق لها.

ثم فصل منافعها وذكر منها أربعا فقال :

(١) (نسقيكم مما فى بطونها) فتنتفعون بألبانها على ضروب شتى ، فتتخذون منها القشدة والسمن والجبن ونحوها .

(٢) (ولكم فيها منافع كثيرة) فتأخذون أصوافها وأشعارها وأوبارها ، وتتخذونها ملابس وفرشا للدفء و بيوتا فى الصحارى ونحوها مما يجرى هذا المجرى .

(٣) (ومنها تأكلون) أى وتأكلون منها بعد ذبحها ، فكما انتفعتم بها وهى حية تنتفعون بها بعد الذبح بالأكل .

(٤) (وعليها وعلى الفلك تحملون) أى وتركبون ظهورها وتحملونها الأحمال الثقيلة إلى البلاد النائية كما قال فى آية أخرى : « وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الْأَنْفُسِ » وقال : « أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ . وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ؟ » .

وقصارى ذلك — إن فى خلق الأنعام عبرا ونعما من وجوه شتى ، ففيه دلائل

على قدرة الخالق بخلق الألبان من مصادر هى أبعد ما تكون منها - ونعما لنا فى مرافقها وأعيانها ، فننتفع بألبانها وأصوافها ولحومها ونجعلها مطايا لنا فى أسفارنا إلى نحو أولئك من شتى المنافع .

قصة نوح عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ، مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ، وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) .

شرح المفردات

الملأ : أشراف القوم ، يتفضل : أى يدعى الفضل والسيادة ، جنة : أى جنون ، فتربصوا : أى انتظروا ، بأعيننا : أى بحفظنا ورعايتنا ، وفار : نبع ، والتنور : وجه

الأرض ، استويت : أى علوت ، لآيات : أى عبرا ، لمبتلين : أى لمختبرين ممتحنين لهم : أى لمعامليهم معاملة من يُختبر .

المعنى الجملى

بعد أن عدّد سبحانه ما أنعم به على عباده فى نشأتهم الأولى وفى خلق الماء لهم لينتفعوا به ، وفى خلق الحيوان كذلك ـ ذكر هنا أن كثيرا من الأمم قد أهملوا التدبر والاعتبار فى هذا ، فكفروا بهذه النعم وجهلوا قدر المنعم بها وعبدوا غيره ، وكذبوا رسله الذين أرسلوا إليهم فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، وأهلكهم الله بعذاب من عنده فأصبحوا كأمس الدابر ، والمثل السائر ، وفى هذا تخويف لقريش وإنذار لهم على مايفعلون، وأنه سيحل بهم ماداموا على تكذيب رسولهم والكفر به مثل ماحل بمن قبلهم .

الإيضاح

(ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) أى ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه منذرا لهم عذاب الله وشديد بأسه وانتقامه على إشراكهم به وتكذيب رسوله ، فقال لهم متعطفا عليهم مستميلا لهم لقبول الحق : يا قوم اعبدوا الله وحده وأطيعوه ولا تشركوا معه ربا سواه ، فإنه لارب لكم غيره ولا معبود سواه .

(أفلا تتقون ؟) أى أفلا تخشون عقاب الله فتحذروا أن تعبدوا معه سواه ؟ .

(فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم) أى فقال أشراف قومه ورؤساؤهم من العريقين فى الكفر ومن ذوى الكلمة المسموعة والرأى المطاع : ما نوح إلا رجل منكم ليس له مِيزة عليكم فى فضل ولا خلق فيكون أهلا للنبوة وتلقى الوحى من ربه ، وما هو إلا رجل يريد أن يسودكم ويكون

ويكون له الصَّوْلة والسلطان عليكم ، وقد ادعى الرسالة ليصل إلى ما تصبو إليه نفسه وليس له من حقيقتها شىء .

وبعد أن بينوا أن لامقتضى لاختصاصه بالنبوة ذكروا الموانع التى تحول بينه وبينها فذكروا أمورا ثلاثة :

(١) (ولو شاء الله لأنزل ملائكة) أى ولو شاء الله ألا نعبد سواه لأرسل بالدعاء إلى ما يدعوكم إليه نوح ملائكة تؤدى إليكم رسالته .

(٢) (ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين) أى ما سمعنا فى القرون الغابرة عهود الآباء والأجداد بمثل هذا الذى يدعو إليه نوح من أنه لا إله إلا إله واحد لاربّ غيره ولامعبود سواه .

وفى هذا إيماء إلى أنهم قوم لا رأى لهم ، وإنما يعولون على التقليد وقول الآباء والأجداد ، فلما لم يجدوا عن آبائهم شيئا مثل هذا أنكروا نبوّته ، وفيه إشارة أيضا إلى أنهم قد بلغوا الغاية فى العناد والتكذيب والانهماك فى الغى والضلال .

(٣) (إن هو إلا رجل به جنة) أى وما نوح إلا رجل به خَبَل فى عقله ، فمزاعمه لاتصدر إلا من رجل لايزن قوله، ولا يدعم رأيه بالحجة الناصعة ، فلا يلتفت إذًا إلى مايدعى ، ولا ينبغى أن نضيع الوقت فى محاجته ، ودحض مزاعمه ، فى صدق دعوته .

وبعد أن ذكروا موانع نبوّته ذكروا الطريقة المثلى فى إبطال دعوته فقالوا :

(فتربصوا به حتى حين) أى فتلبثوا وانتظروا لعله يضيق مما هو فيه فيعود سيرته الأولى ويرجع من تلقاء نفسه إلى دينكم ودين آبائكم وأجدادكم .

وهذا من مكابراتهم لفرط عنادهم إذ هم يعلمون أنه أرجح الناس عقلا وأرزنهم قولا .

ولم يردّ سبحانه على هذه الشبه لسخافتها ووضوح فسادها ، إذ كل عاقل يعلم أن الرسول يتميز من غيره بالمعجزات التى تأتى على يديه سواء أكان ملكا أم بشرا ،

و إرادته التفضل عليهم إن كانت لأجل أن يستبين فضله حتى ينقادوا له فلا ضير فى ذلك بل هو واجب ، و إن أرادوا أنه يبغى التجبر عليهم فالأنبياء منزهون عن ذلك ، وقولهم : ماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين، اعتناق للتقليد وهو لا يصلح حجة تدفع بها حجج المعارضين الواضحة وضوح الشمس فى رائعة النهار ، وقولهم : به جنة كذب صراح ، لأنهم يعلمون ذَكَنِهِ وعظيم فطنته وما أوتيه من أصالة الرأى وثاقب الفكر.

ولما استبان لنوح إصرارهم على ضلالهم وتماديهم فى غيهم و يأسه من إيمانهم وأوحى إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ـ طلب إلى ربه أن ينصره عليهم :

(قال رب انصرنى بما كذبون) أى قال رب انصرنى بإنجاز ما أوعدتهم به من العذاب بقولى « إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » .

ونحو الآية قوله : « فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ » وقوله : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً » .

وقد أجاب الله دعاءه فقال :

(فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا) أى فقلنا له حين استنصرنا على كفرة قومه : اصنع السفينة بحفظنا ورعايتنا لك من التعدى عليك وتعليمنا إياك كيفية صنعها .

(فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم) أى فإذا جاء قضاؤنا فى قومك بعذابهم وهلاكهم ونبع الماء من وجه الأرض ـ فأدخل فيها من كل طائفة من الحيوان فردين مزدوجين كناقة وجمل وحصان وَرَمَكَةٍ ، وأدخل ولدك ونساءهم إلا من سبق عليه القول من الله بأنه هالك فيمن يهلك فلا تحمله معك وهو كنعان وأمه .

(ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) أى ولا تسألنى أن أنجى الذين كفروا بالله من الغرق . فإن كلمتى قد حقت عليهم أجمعين .

ثم أمره بحمده والثناء عليه إذا هو استوى على الفلك فقال :

(فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين) أى فإذا اطمأننت فى السفينة أنت ومن معك ممن حملته من أهلك ، فقل الحمد لله الذى نجانا من هؤلاء المشركين الظلمة .

وفى هذا إيماء إلى أنه لاينبغى المسرة بمصيبة أحد ولو عدوا إلا إذا اشتملت على دفع ضرره أو تطهير الأرض من دنس شركه وإضلاله .

قال ابن عباس : كان فى السفينة ثمانون إنسانا نوح وامرأته غير التى غرقت وثلاثة بنين سام وحام ويافث وثلاث نسوة لهم واثنان وسبعون إنسانا ، وكل الخلائق من نسل من كان فى السفينة .

ثم أمر نوح أن يدعو ربه حين خروجه من السفينة .

(وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) أى وقل إذا سلمت وخرجت من السفينة : رب أنزلنى من الأرض منزلا مباركا وأنت خير من أنزل عباده المنازل .

قال قتادة : علمكم الله أن تقولوا حين ركوب السفينة : « بِاسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » وحين ركوب الدابة : « سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ» وحين النزول : «وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِى مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ» .

(إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين) أى إن فيما فعلنا بقوم نوح من إهلاكهم إذ كذبوا رسولنا وجحدوا وحدانيتنا وعبدوا الآلهة والأصنام — لعبرا لقومك من مشركى قريش ، وحججا لنا عليهم يستدلون بها على سنننا فى أمثالهم فينزجرون عن كفرهم ، ويرتدون عن تكذيبهم حذر أن يصيبهم مثل الذى أصاب من قبلهم من العذاب ، وقد كنا مُخْتَبِرِيهم بالتذكير بهذه الآيات لننظر ماذا يفعلون قبل أن نزل بهم عقوبتنا .

ونحو الآية قوله : « وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » وقد تقدم هذا القصص بتفصيل فى سورة هود عليه السلام .

قصة هود عليه السلام

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا : مَا هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ، فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) .

شرح المفردات

القرن : الأمة ، والمراد بهم عاد قوم هود لقوله تعالى فى سورة الأعراف : « وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ » أترفناهم : أى وسعنا عليهم وجعلناهم فى ترف ونعيم ، لخاسرون : أى لمغبونون فى آرائكم إذ أنكم أذللتم أنفسكم

لعبادة من هو دونكم ، هيهات : أى بعد ، ما توعدون : هو البعث والحساب ، بمؤمنين : أى بمصدقين ، عما قليل : أى بعد زمان قليل ، ليصبحنّ : أى ليصيرنّ ، والصيحة : العذاب الشديد كما قال :

صاح الزمان بآل بَرْمَكَ صيحة خرّوا لشدتها على الأذقان

والغثاء : ما يحمله السيل من الورق والعيدان البالية التى لا ينتفع بها ، بعدا : أى هلاكا .

الإيضاح

(ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين . فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، أفلا تتقون ؟) أى ثم أوجدنا من بعد مهلك قوم نوح قوما آخرين وهم عاد فأرسلنا فيهم رسولا منهم ، وهو هود عليه السلام داعيا لهم قائلا : يا قوم اعبدوا الله وأطيعوه دون الأوثان والأصنام ، فإن العبادة لا تنبغى إلا له ولا تصلح لسواه ، أفلا تخافون عقابه بعبادتكم غيره من وثن أو صنم ؟ .

(قال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) أى وقال أشراف قومه الذين جحدوا وحدانية الله وكذبوا بالبعث والحساب ، وقد وسعنا عليهم فى الحياة الدنيا بما بسطنا لهم من الرزق حتى بطروا وعتوا وكفروا بربهم : ما هود إلا بشر مثلكم لا ميزة له عنكم، فهو يأكل مما تأكلون ويشرب مما تشربون، ومرادهم بذلك توهين أمره وتحقير شأنه .

(ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذًا لخاسرون) أى ولئن أطعتم بشرا مثلكم فاتبعتموه وقبلتم ما يقول : إنكم إذًا لمغبونون حظوظكم من الشرف والرفعة فى الدنيا .

ثم بينوا سبب إنكارهم لاتباعه واستبعادهم وقوع ما يدعيه بقولهم :

(أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون) أى أيعدكم أنكم مخرجون من قبوركم أحياء كما كنتم أولا إذا متم وكنتم ترابا فى القبور بعد أن تذهب لحومكم وتبقى عظامكم.

(هيهات هيهات لما توعدون) أى بعيد ما توعدون أيها القوم من أنكم بعد موتكم ومصيركم ترابا وعظاما تخرجون من قبوركم للبعث والحساب ثم الجزاء على ما تعملون .

ثم أكدوا هذا الإنكار بقولهم :

(إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين) أى ما حياة إلا هذه الحياة فى الدنيا ، تموت الأحياء منا فلا تحيا ، ويحدث آخرون منا ويولدون ، وما نحن بمبعوثين بعد الموت ، إنما مثلنا مثل الزرع يحصد هذا وينبت ذاك .

والخلاصة — إنه يموت منا من هو موجود وينشأ آخرون بعدهم .

وبعد أن كان أمرهم معه مقصورا على الاستبعاد فحسب ، جاهروا بتكذيبه فيما يدعى فقالوا :

(إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين) أى ما هود إلا رجل يختلق الكذب على الله ، فتارة يقول : مالكم من إله غير الله خالق السموات والأرض ، وأخرى يقول : إنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما إنكم مخرجون ، وما نحن بمصدقيه فيما يدعى ويزعم من التوحيد والبعث .

ولما يئس هود من إيمانهم بعد ذكر هذه المقالة « وما نحن له بمؤمنين » فزع إلى ربه .

(قال رب انصرنى بما كذبون) أى قال بعد أن يئس من إيمانهم وقد سلك فى دعوتهم كل مسلك ، متضرعا إلى ربه : رب انصرنى عليهم وانتقم لى منهم بتكذيبهم إياى فيما دعوتهم إليه من الحق وإصرارهم على الباطل .

فأجابه ربه إلى ما سأل .

(قال عما قليل ليصبحن نادمين) أى قال تعالى مجيبا دعاءه : ليصيرنّ مكذبوك بعد زمن قليل نادمين على ما فعلوا ، وستحل بهم نقمتنا ولا ينفعهم الندم حينئذ .

ثم أخبر أنه أنجز وعيده فيهم فقال :

(فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء) أى فسلطنا عليهم نقمتنا فأخذهم العذاب الذى لا قِبَل لهم به ، وقد كانوا لمثله مستحقين ، بسبب كفرهم وتكذيبهم برسوله ، فجعلناهم كغثاء السيل ، لاغناء فيهم ، ولا فائدة ترجى منهم .

(فبعدا للقوم الظالمين) أى فأبعد الله القوم الكافرين بهلاكهم ، إذ كفروا بربهم وعصوا رسوله وظلموا أنفسهم .

وفى هذا من الذلة والمهانة لهم والاستخفاف بأمرهم ما لا يخفى ، وأن الذى ينزل بهم فى الآخرة من البعد من النعيم والثواب أعظم مما حل بهم من العقاب فى الدنيا ، وفيه عظيم العبرة لمن بعدهم ممن هم عرضة لمثله .

قصص صالح ولوط وشعيب وغيرهم

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى ، كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ، فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ (٤٤) .

شرح المفردات

تترى ، من المواترة : وهى التتابع بين الأشياء مع فترة ومهلة بينها قاله الأصمعى . أحاديث : واحدها أحدوثة ، وهى ما يتحدث به تعجبا منه وتلهيا به ، وقد جمعت العرب

ألفاظا على أفاعيل كأباطيل وأقاطيع ، وقال الزمخشرى : الأحاديث اسم جمع للحديث ومنه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن الجمهور على أنه جمع كما علمت .

الإيضاح

(ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين) أى ثم أنشأنا من بعد هلاك عاد أقواما آخرين كقوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم .

(ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) أى ما تتقدم أمة من تلك الأمم المهلكة ، الوقت الذى قدّر لهلاكهم وما يستأخرون عنه .

والخلاصة — ما تهلك أمة قبل مجىء أجلها ولا بعده ، فلكل شىء ميقات لا يعدوه .

(ثم أرسلنا رسلنا تترى) أى ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين وقد أرسلنا إلى كل قرن منهم رسولا خاصا به ، بعضهم فى إثر بعض .

(كلما جاء أمة رسولها كذبوه) أى كلما بلّغهم الرسول ما جاء به من عند ربه من الشرائع والأحكام كذبوه ، كما فعل قومك بك حين أمرتهم بذلك .

(فأتبعنا بعضهم بعضا) أى فأهلكنا بعضهم فى إثر بعض حين تألّبوا على رسلهم وكذبوهم .

(وجعلناهم أحاديث) يتحدث بها الناس ويتلهون بذكرها .

ونحو الآية قوله : « فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ » .

ولما ترتب على تكذيبهم الهلاك المقتضى لبعدهم قال :

(فبعدا لقوم لا يؤمنون) أى فأبعد الله قوما لا يؤمنون به ولا يصدقون برسوله.

قصة موسى وهرون عليهما السلام

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هٰرُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ

لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) .

شرح المفردات

الآيات : هى الآيات التسع التى سبقت فى سورة الأعراف ، والسلطان : الحجة عالين : أى متكبرين ، عابدون : أى خدم منقادون ، قال أبو عبيدة : العرب تسمى كل من دان للملك عابدا، وقال المبرد: العابد : المطيع الخاضع ، الكتاب : هو التوراة.

الإيضاح

(ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا وسلطان مبين. إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين) أى ثم أرسلنا بعد الرسل الذين قد تقدم ذكرهم من قبل - موسى وأخاه هرون إلى فرعون وأشراف قومه من القبط بالآيات والحجج الدامغة ، والبراهين القاطعة ، فاستكبروا عن اتباعهما والانقياد لما أمروا به ودعوا إليه من الإيمان وترك تعذيب بنى إسرائيل كما جاء فى سورة النازعات : «اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى . وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى » وقد كان من دأبهم العتوّ والبغى على الناس وظلمهم كبرا وعلوا فى الأرض .

ثم ذكر ما استتبعه هذا العتو والجبروت .

(فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ؟) أى فقال فرعون وملؤه : كيف ندين لموسى وأخيه ، وبنو إسرائيل قومهما خدمنا وعبيدنا يخضعون لنا ويتلقون أوامرنا .

وما قصدوا بهذا إلا الزراية بهما والحط من قدرهما ، وبيان أن مثلهما غير جدير بمنصب الرسالة ، وقد قاسوا الشرف الدينى والإمامة فى تبليغ الوحى عن الله بالرياسة الدنيوية المبنية على نيل الجاه والمال .

وهم فى هذا أشبه بقريش إذ قالوا : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » وقد فاتهم أن مدار أمر النبوة والاصطفاء للرسالة إنما هو السبق فى الفضائل النفسية والصفات السنية التى يتفضل الله بها على من يشاء من عباده ، فالأنبياء لصفاء نفوسهم يتصلون بالعالم العلوى وعالم المادة فيتلقون الوحى من الملأ الأعلى ويبلغونه إلى البشر ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل والانقطاع إلى حضرة الحق .

وإن تعجب من شىء فاعجب لهؤلاء وأمثالهم ممن لم يرض النبوة للبشر ، كيف سوغت لهم أنفسهم ادعاء الألوهية للحجر : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » .

ثم ذكر عاقبة أعمالهم وما آل إليه أمرهم فقال :

(فكذبوهما فكانوا من المهلكين) أى فأصر فرعون وملؤه على تكذيب موسى وهرون فأهلكهم الله بالغرق فى بحر القُلْزُم (البحر الأحمر) كما أهلك من قبلهم من الأمم بتكذيبهم لرسلهم .

ثم ذكر ما أولاه موسى بعد هلاكهم من التشريف والتكريم فقال :

(ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون) أى ولقد أنزلنا على موسى التوراة وفيها الأحكام من الأوامر والنواهى بعد أن أهلكنا فرعون وملأه وأخذناهم أخذ عزيز مقتدر رجاء أن يهتدى بها قومه إلى الحق ويعملوا بما فيها من الشرائع .

قصص عيسى عليه السلام إجمالا

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) .

شرح المفردات

الآية : الحجة والبرهان ، وآويناهما : أى جعلنا مأواهما ومنزلهما الربوة وهى ما ارتفع من الأرض دون الجبل ، ذات قرار : أى ذات استقرار للناس لما فيها من الزرع والثمار ، ومعين : أى ماء جار .

الإيضاح

(وجعلنا ابن مريم وأمه آية) أى جعلنا عيسى آية للناس دالة على عظيم قدرتنا وبديع صنعنا إذ خلقناه من غير أب وأنطقناه فى المهد وأجرينا على يديه إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، وجعلنا أمه آية إذ حملته من غير أب .

وجعلهما آية واحدة ، لأنهما اشتركا فى هـذا الأمر العجيب الخارق للعادة وهو الولادة بلا أب .

ونحو الآية قوله : « وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ » .

(وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) أى وجعلناهما ينزلان بمرتفع من الأرض ذى ثمار وماء جار كثير .

قال قتادة : الربوة : بيت المقدس ، وقال مقاتل والضحاك : هى غُوطة دمشق إذ هى ذات الثمار والماء .

يَـأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦) .

شرح المفردات

الطيبات : ما يستطاب ويستلذ من المآكل والفواكه ، أمتكم : أى ملتكم وشريعتكم ، فتقطعوا : أى قطعوا ومزقوا ، أمرهم : أى أمر دينهم ، زبرا : أى قطعا واحدها زبور ، فذرهم : أى ندعهم واتركهم ، وأصل الغمرة الماء الذى يغمر القامة ويسترها والمراد بها الجهالة ، حتى حين: أى إلى أن يموتوا فيستحقوا العذاب ، نمدهم: أى نعطيه مددا لهم .

المعنى الجملى

بعد أن قص سبحانه علينا قصص بعض الأنبياء السالفين ـ عقّب هذا ببيان أنه أوصاهم جميعا بأن يأكلوا من الحلال ، ويعملوا صالح الأعمال ، كِفاء ما أنعم به عليهم من النعم العظيمة والمزايا الجليلة التى لايقدر قدرها ، ثم حذرهم وأنذرهم بأنه عليم بكل أعمالهم ظاهرها وباطنها ، لاتخفى عليه من أمورهم خافية ، ثم أرشدهم إلى أن الدين الحق واحد لاتعدد فيه ولكن الأمم قد فرقت دينها شيعا ، وكل أمة فرحة مسرورة بما تدين به كما هى حال قريش ، ثم خاطب رسوله بأن يتركهم وما يعتقدون إلى حين ، ثم ذكر أنهم فى عماية حين ظنوا أن ما أوتوه من النعم هو حُظْوة من ربهم لهم ـ كلا ، فهم لايشعرون بحقيقة أمرهم وعاقبة حالهم ، ولو عقلوا لعلموا أنهم فى سكرتهم يعمهون .

الإيضاح

(يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا) أمر الله كل نبى فى زمانه بأن يأكل من المال الحلال مالذّ وطاب ، وأن يعمل صالح الأعمال ، ليكون ذلك كفاء ما أنعم به عليه من النعم الظاهرة والباطنة .

وهذا الأمر وإن كان موجها إلى الأنبياء فإن أممهم تبع لهم ، وكأنه يقول لنا :

أيها المسلمون فى جميع الأقطار ، كلوا من الطيبات أى من الحلال الصافى القوّام ـ الحلال ما لايعصى الله فيه ، والصافى ما لاينسى الله فيه ، والقوّام ما يمسك النفس ويحفظ العقل ـ واعملوا صالح الأعمال .

أخرج أحمد وابن أبى حاتم وابن مردويه والحاكم عن أم عبد الله أخت شداد ابن أوس رضى الله عنها أنها بعثت إلى النبى صلى الله عليه وسلم بقدح لبن حين فطره وهو صائم ، فرد إليها رسولها وقال : من أين لك هذا ؟ فقالت من شاة لى ، ثم رده وقال : من أين هذه الشاة ؟ فقالت اشتريتها بمالى فأخذه ، فلما كان من الغد أمّته وقالت يا رسول الله : لم رددت اللبن ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : أمرت الرسل ألا يأكلوا إلا طيبا ولا يعملوا إلا صالحا .

وأخرج مسلم والترمذى وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس ! إن الله تعالى طيب لايقبل إلا طيبا ، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : يَـٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » وقال « يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ » ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذّى بالحرام يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب فأنّى يستجاب له » ؟

وفى تقديم أكل الطيبات على العمل الصالح إيماء إلى أن العمل الصالح لايتقبل إلا إذا سبق بأكل المال الحلال .

وجاء فى بعض الأخبار « إن الله تعالى لايقبل عبادة مَن فى جوفه لقمة من حرام » وصح أيضاً « أيما لحم نبت من سحت فالنار أولى به » .

ثم علل هذا الأمر بقوله :

(إنى بما تعملون عليم) أى إنى بأعمالكم عليم لا يخفى على شىء منها ، وأنا مجازيكم بجميعها ، وموفيكم أجوركم وثوابكم عليها ، فخذوا فى صالح الأعمال واجتهدوا قدر طاقتكم فيها ، شكرا لربكم على ما أنعم به عليكم .

وفى هذا تحذير من مخالفتهم ما أمروا به ، وإذا قيل للأنبياء ذلك فما أجدر أممهم أن تأخذ حذرها ، وترعوى عن غيها ، وتخشى بأس الله وشديد عقابه :

(وإن هذه أمتكم أمة واحدة) أى وإن دينكم معشر الأنبياء دين واحد وملة واحدة ، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لاشريك له — واختلاف الشرائع والأحكام على حسب اختلاف الأزمان والأحوال لايسمى اختلافا فى الدين ، لأن الأصول واحدة .

(وأنا ربكم فاعبدون) أى وإنى أنا ربكم لا شريك لى فى الربوبية فاحذروا عقابى وخافوا عذابى .

وفى هذا إيماء إلى أن دين الجميع واحد فيما يتصل بمعرفة الله واتقاء معاصيه .

ثم بين أن أمم أولئك الرسل خالفوا أمر رسلهم واتبعوا أهواءهم وجعلوا دينهم فرقا وشيعا فقال :

(فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون) أى فتفرق أتباع الأنبياء فرقا وجماعات ، وأصبح كل فريق معجبا بنفسه ، فرحا بما عنده ، معتقداً أنه الحق الذى لامعْدِل عنه .

فيا أتباع الأنبياء . أين عقولكم ؟ إن الله أرسل إليكم رسلا فجعلتموهم محل الشقاق ومثار النزاع ، لم هذا ؟ هل اختلاف الشرائع مع اتحاد الأصول والعقائد ينافى المودة والمحبة ؟ وأين أنتم يا أتباع محمد ؟ مالكم كيف تفرقتم أحزابا ؟ هل اختلاف المذاهب كشافعية ومالكية وزيدية وشيعة يفرق العقيدة ؟ وكيف يكون هذا سبب التفرقة ؟ فهل تغير الدين ؟ وهل تغير القرآن ؟ وهل تغيرت القبلة ؟ وهل حدث إشراك ؟ كلا كلا ، فإذا كان العيب قد لحق الأمم المختلفة على تنابذها ، فما أجدركم أن يلحقكم الذم على تنابذكم وأنتم أهل دين واحد .

ولا علة لهذا إلا الجهالة الجهلاء ، فقد خيم الجهل فوق ربوعكم ومدت طنبه بين ظهرانَيْكم ، لأنكم فرطتم فى كتاب ربكم ؛ ظننتم أن أسس الدين هى مسائل

العبادات والأحكام، وتركتم الأخلاق وراءكم ظهريا ، وتركتم آيات التوحيد والنظر فى الأكوان ، ولو أنكم نظرتم إلى شىء من هذا لعلمتم أن كل ذلك من دينكم وأنتم عنه غافلون .

وبعد أن ذكر سبحانه ما حدث من أمم أولئك الأنبياء من التفرّق والانقسام فيما كان يجب عليهم فيه اتفاق الكلمة ، ومن فرحهم بما فعلوا ـ أمر نبيه أن يتركهم فى جهلهم الذى لاجهل فوقه ، لأنه لاينجع فيهم النصح ولا يجدى فيهم الإرشاد فقال :

(فذرهم فى غمرتهم حتى حين) أى فذرهم فى غيهم وضلالهم إلى حين يرون العذاب رأى العين .

ونحو الآية قوله : « فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا » وقوله : « ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » .

وقد جُعلوا فى غمرة تشبيها لحالهم حين ستر الجهل والحيرة عقولهم بحال من غمره الماء وغطاه .

ثم بين خطأهم فيما يظنون من أن سعة الرزق فى الدنيا علامة رضا الله عنهم فى الآخرة فقال :

(أيحسبون أن ما نمدهم به من مال و بنين نسارع لهم فى الخيرات بل لايشعرون) أى أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد ، كرامة لهم علينا وإجلالا لأقدارهم عندنا ـ كلا ، إن هذا الإمداد ليس إلا استدراجا فى المعاصى ، واستجراراً لهم فى زيادة الإثم ، وهم يحسبونه مسارعة فى الخيرات ، إذهم أشبه بالبهائم لافطنة لهم ولا شعور حتى يتفكروا فى أنه ـ استدراج هو أم مسارعة فى الخيرات ؟

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم : « وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » وقوله : « فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقوله : « إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا » .

قال قتادة فى تفسير الآية : مكر الله بالقوم فى أموالهم وأولادهم . يابن آدم لا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا من أحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ، والذى نفس محمد بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه ، قالوا وما بوائقه يارسول الله ؟ قال غشه وظلمه » .

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) .

شرح المفردات

الخشية: الخوف من العقاب ، والإشفاق نهاية الخوف والمراد لازمه ، وهو دوام الطاعة ، والآيات : هى الآيات الكونية فى الأنفس والآفاق والآيات المنزلة ، وجلة : أى خائفة ، سابقون : أى ظافرون بنيلها .

المعنى الجملى

بعد أن ذم سبحانه من فرقوا دينهم شيعا وفرحوا بما عملوا وظنوا أن ما نالوه من حظوظ الدنيا هو وسيلة لنيل الثواب فى الآخرة ، وبين أنهم واهمون فيما حسبوا — قفى على ذلك بذكر صفات من له المسارعة فى الخيرات ومن هو جدير بها .

الإيضاح

(إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون) أى إن الذين هم من خوفهم من عذاب ربهم دائبون فى طاعته ، جادون فى نيل مرضاته ، فهم فى نهاية الخوف من سخطه عاجلا ومن عذابه آجلا ، ومن ثم يبتعدون عن الآثام والمعاصى .

(والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) أى والذين هم بآيات ربهم الكونية التى نصبها فى الأنفس والآفاق دلالة على وجوده ووحدانيته ، وبآياته المنزلة على رسله - مصدقون موقنون لا يعتريهم شك ولا ريب .

(والذين هم بربهم لا يشركون) أى والذين لا يعبدون مع الله سواه ، ويعلمون أنه الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى ليس له صاحبة ولا ولد .

وفيما سبق وصف لله بتوحيد الربوبية ، وهنا وصف له بتوحيد الألوهية ، ولم يقتصر على الأول ، لأن كثيراً من المشركين يعترفون بتوحيد الربوبية كما قال : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ » ولا يعترفون بتوحيد الألوهية والعبادة ، ومن ثم عبدوا الأصنام والأوثان على طرائق شتى ، وعبدو معبودات مختلفة .

(والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون) أى والذين يعطون ما أعطوا ويتصدقون بما تصدقوا ، وقلوبهم خائفة ألا يتقبل ذلك منهم وألا يقع على الوجه المرضى حين يبعثون ويرجعون إلى ربهم وتنكشف الحقائق ويحتاج العبد إلى عمل مقبول لديه وإن قل « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

ويدخل فى قوله : (يؤتون ما آتوا) كل حق يلزم إيتاؤه ، سواء أكان من حقوق الله كالزكاة والكفارة وغيرها أم من حقوق العباد كالودائع والديون والعدل بين الناس ، فمتى فعلوا ذلك (وقلوبهم وجلة من التقصير والإخلال بها بنقصان أو غيره) اجتهدوا فى أن يوفوها حقها حين الأداء .

وسألت عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) أهو الذى يزنى ويشرب الخمر ، ويسرق وهو على ذلك يخاف الله تعالى ؟ فقال لا يابنة الصديق ، ولكن هو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف ألا يقبل ذلك منه .

(أولئك يسارعون فى الخيرات) أى أولئك الذين جمعوا هذه المحاسن يرغبون فى الطاعات أشد الرغبة ، فيبادرونها لئلا تفوتهم إذا هم ماتوا ، ويتعجلون فى الدنيا وجوه الخيرات العاجلة التى وعدوا بها على الأعمال الصالحة فى نحو قوله : « فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ » وقوله : « وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ » .

(وهم لها سابقون) أى إنهم يرغبون فى الطاعات وهم لأجلها سابقون الناس إلى الثواب ، لا أولئك الذين أمددناهم بالمال والبنين فظنوا غير الحق أن ذلك إكرام منّا لهم ، فإن إعطاء المال والبنين والإمداد بهما لا يؤهل للمسارعة إلى الخيرات ، وإنما الذى يؤهل للخيرات هو خشية الله وعدم الإشراك به وعدم الرياء فى العمل والتصديق مع الخوف منه .

ومعنى (هم لها) أنهم معدّون لفعل مثلها من الأمور العظيمة ، كقولك لمن يطلب منه حاجة لا ترجى من غيره ـ أنت لها ـ وعلى هذا قوله :

مشكلات أعضلت ودهت يا رسول الله أنت لها

وخلاصة ذلك — إن النعم ليست هى السعادة الدنيوية ونيل الحظوظ فيها ، بل هى العمل الطيب بإيتاء الصدقات ونحوها مع إحاطة ذلك بالخوف والخشية .

وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (٦٢) .

شرح المفردات

الوسع : مايتسع على الإنسان فعله ولا يضيق عليه ، والكتاب : هو صحائف الأعمال ، بالحق : أى بالصدق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه صفات المؤمنين المخلصين الذين يسارعون إلى الخيرات — أرشد إلى أن ما كلفوا به سهل يسير لايخرج عن حد الوسع والطاقة ، وأنه مهما قلّ فهو محفوظ عنده فى كتاب لايضل ربى ولا ينسى ، وهو لايظلم أحدا من خلقه ، بل يجزى بقدر العمل و بما نطقت به الصحف على وجه الحق والعدل .

الإيضاح

(ولا نكلف نفسا إلا وسعها) أى إن سنتنا جارية على ألا نكلف نفسا إلا مافى وسعها وقدر طاقتها ، ومن ثم قال مقاتل : من لم يستطع القيام فى الصلاة فليصلّ قاعدا ، ومن لم يستطع القعود فليوم إيماء .

(ولدينا كتاب ينطق بالحق) أى ولدينا صحائف أعمالهم يقرءونها حين الحساب وتظهر فيها أعمالهم التى عملوها فى الدنيا دون لبس ولا ريب ، ويجازون على الجليل منها والحقير، والقليل والكثير .

ونحو الآية قوله : « هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » وقوله : « لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا » .

ثم بين فضله على عباده وعدله بينهم فى الجزاء إثر بيان لطفه فى التكليف وكتابة الأعمال على ماهى عليه فقال :

(وهم لايظلمون) أى وهم لايظلمون فى الجزاء بنقص ثواب أو زيادة عذاب ، بل يجازون بما عملوا ونطقت به كتبهم بالعدل والحق .

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) .

شرح المفردات

الغمرة : الغفلة والجهالة ، من دون ذلك : أي غير ذلك ، والمترف : المتوسع فى النعمة ، وجأر الرجل : صاح ورفع صوته ، لاتنصرون : أى لايجيركم أحد ولا ينصركم ، تنكصون : أى تعرضون عن سماعها ، وأصل النكوص: الرجوع على

الأعقاب (العقب مؤخر الرِّجْل) ورجوع الشخص على عقبه : رجوعه فى طريقه الأولى كما يقال رجع عوده على بدئه ، سامرا : أى تسمرون بذكر القرآن والطعن فيه ، والهُجْر (بالضم) الهذيان ، والجِنة: الجنون ، والذكر : القرآن الذى هو فخرهم ، عن ذكرهم : أى فخرهم ، خرجا : أى جُعْلا وأجرا ، صراط مستقيم : أى طريق لاعوج فيه ، لناكبون : أى عادلون عن طريق الرشاد ، يقال نكب عن الطريق: إذا زاغ عنه ، لجّ فى الأمر : تمادى فيه ، يعمهون : أى يتحيرون ويترددون فى الضلال ، واستكانوا : خضعوا وذلوا ، وما يتضرعون : أى يجددون التضرع والخضوع ، مبلسون : أى متحيرون آيسون من كل خير .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه سجاحة هذا الدين وأنه دين يسر لاعسر فلا يكلف النفس إلا ماتطيق ، وأن مايعمله المرء فهو محفوظ فى كتاب لايبخس منه شيئا ولا يزاد له فيه شىء — أردف هذا ببيان أن المشركين فى غفلة عن هذا الذى بين فى القرآن ولهم أعمال سوء أخرى من فنون الكفر والمعاصى كطعنهم فى القرآن واستهزائهم بالنبى صلى الله عليه وسلم وإيذائهم للمؤمنين ، فإذا حل بهم بأسنا يوم القيامة جأروا واستغاثوا فقلنا لهم لافائدة فيما تعملون ، فقد جاءتكم الآيات والنذر فأعرضتم عنها واتخذتموها هزوا تسمرون بها فى البيت الحرام وقد كان من حقكم أن تتدبروا القرآن لتعلموا أنه الحق من ربكم ، وأن مجىء الكتب إلى الرسل سنة قديمة فكيف تنكرونها ، وهل رابكم فى رسولكم شىء حتى تمتنعوا من تصديقه وتقولوا إن به جِنّةً وأنتم تعلمون أنه أرجح الناس عقلا وأثقبهم رأيا — لا — إن الأمر على غير ماتظنون ، إنه قد جاءكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ، لما دسيتم به أنفسكم من الزيغ والانصراف عن سبيل الحق ، ولو أجابكم ربكم إلى مافى أنفسكم من الهوى وشرع الأمور وفق ذلك لفسدت السموات والأرض لفساد أهوائكم

واختلافها ، وأنتم لو تأملتم لعلمتم أن ماجاءكم به هو فخركم فكيف تعرضون عنه ، وهل تظنون أنه يسألكم أجرا على هدايتكم وإرشادكم فما عند الله خير مما عندكم وهو خير الرازقين . فها هو ذا قد تبين الرشد من الغيّ واستبان أن ما تدعوهم إليه هو الحق الذى لامحيص منه ، وأن الذين لايؤمنون به عادلون عن طريق الحق ، وقد بلغوا حدا من التمرد والعناد لايرجى معه صلاح ، فلو أنهم ردوا فى الآخرة إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه لشدة لجاجهم وتدسيتهم لأنفسهم .

ولقد قتلنا سراتهم بالسيف يوم بدر فما خضعوا ولا انقادوا لربهم ولا ردهم ذلك عما كانوا فيه ، بل استمروا فى غيّهم وضلالهم كما قال « فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا » .

فإذا جاءتهم الساعة بغتة وأخذهم من عذاب الله مالم يكونوا يحتسبون ، أيسوا من كل خير وانقطع رجاؤهم من كل راحة وسعادة .

الإيضاح

(بل قلوبهم فى غمرة من هذا) أى بل قلوب المشركين فى غفلة عن هدى القرآن والاسترشاد بما جاء به مما فيه سعادة الناس فى دينهم ودنياهم ، فلو قرءوه وتدبروه لرأوا أنه كتاب ينطق بالصدق ، وأنه يقضى بأن أعمال المرء مهما دقت فهو محاسب عليها ، وإن ربك لايظلم أحدا من عباده .

ثم ذكر جنايات أخرى لهم فوق جناياتهم السابقة فقال :

(ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون) أى إن لهم أعمالا أخرى أسوأ من ذلك ، فقد أغرقوا فى الشرك والمعاصى واتخذوا هذا الكتاب هزوا وجعلوه سمرهم فى البيت الحرام يقولون فيه ماهو منه براء ، يقولون إن هو إلا سحر مفترى ، وما هو إلا أساطير الأولين ، وما هو إلا كلام شاعر ، ويتقوّلون على من أرسل به فيزعمون أنه رجل به جنة ، وأنه قد تعلمه من غيره من أهل الكتاب ، وانغمسوا فى عبادة

الأوثان والأصنام ، ولقد تراهم إذا جاء البرهان الساطع أعرضوا عنه وقالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة و إنا على آثارهم مقتدون .

(حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون) أى حتى إذا حلّ بهم بأسنا يوم القيامة وحاق بهم سوء العذاب صاحوا صيحة منكرة وقالوا : واغوثاه ، وواسوء منقلباه ، لشدة مايرون من الكرب والهول ، ولا سيما مترفوهم الذى انقلب أمرهم من النعيم إلى العذاب الأليم ، وندموا حين لا ينفع الندم :

ندم البغاة ولات ساعة مندم　　والبغى مرتع مبتغيه وخيم

ثم أبان أن الصريخ والعويل لايجديهم نفعا فقال :

(لاتجأروا اليوم إنكم منا لاتنصرون) أى قلنا لهم : هيهات هيهات ، قد فات ما فات ، الآن لايجديكم البكاء والعويل ، فهذا وقت الجزاء على ما كسبت أيديكم ، وقد حقت عليكم كلمة ربكم ، ولا مغيث من أمره ، ولا ناصر يحول بينكم و بين بأسه.

ولا يخفى ما فى ذلك من التهويل الشديد لذلك اليوم وأنه لاتجدى فيه ضراعة ولا استغاثة ، ولا ينفع فيه ولىّ ولا نصير .

ثم ذكر سببا آخر يبين أن البكاء والصراخ لاينفع شيئا فقال :

(قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون) أى دعوا الصراخ فإنه لايمنعكم منا ، واتركوا النصير فإنه لاينفعكم عندنا ، فقد ركبتم شططا وجاءتكم الآيات والنذر فأعرضتم عن سماعها ، فضلا عن تصديقها والعمل بها ، وكنتم كمن ينكص على عقبيه موليا القهقرى ، نافرا مما يسمع ويرى .

ثم ذكر سببا ثالثا يدعو إلى التنكيل بهم والتشديد فى عذابهم فقال :

(مستكبرين به سامرا تهجرون) أى تعرضون عن الإيمان مستعظمين بالبيت الحرام ، تقولون نحن أهل حرمه وخدام بيته ، فلا يظهر علينا أحد ولا نخاف أحدا ، وتسمرون حوله وتتخذون القرآن سلوا كم ، والطعن فيه هجّيرا كم ، تهذون فتقولون : هو سحر ، هو شعر ، هو كهانة إلى آخر مايحلو لكم أن تتقوّلوه .

والخلاصة — إنكم كنتم عن سماع آياتي معرضين ، مستعظمين بأنكم خدام البيت وجيرانه ، فلا تضامون ، وتهذون في أمر القرآن وتقولون فيه ماليس فيه مسْحة من الحق ، ولا جانب من صواب .

ثم أتبعهم على مافعلوا و بين أن إقدامهم عليه لابد أن يكون لأحد أسباب أربعة فقال :

(١) (أفلم يدبروا القول) أي إنهم لم يتدبروا القرآن فيعلموا ماخص به من فصاحة و بلاغة ، وقد كان لديهم فسحة من الوقت تمكنهم من التدبر فيه ومعرفة أنه الحق من ربهم وأنه مبرأ من التناقض وسائر العيوب التي تعترى الكلام ـ إلى مافيه من حجج دامغة ، و براهين ساطعة ، إلى مافيه من فضائل الآداب ، وسامى الأخلاق ، إلى مافيه من تشريع إن هم اتبعوه كانوا سادة البشر ، واتبعهم الأسود والأحمر ، كما كان لمن اتبعه من السابقين الأولين من المؤمنين .

(٢) (أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين) أى أم اعتقدوا أن مجىء الرسل أمر لم تسبق به السنن من قبلهم ، فاستبعدوا وقوعه ، لكنهم قد عرفوا بالتواتر أن الرسل كانت تترى وتظهر على أيديهم المعجزات ، فهلا كان ذلك داعيا لهم إلى التصديق بهذا الرسول الذى جاء بذلك الكتاب الذى لاريب فيه .

(٣) (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) أى أم إنهم لم يعرفوا رسولهم بأمانته وصدقه وجميل خصاله قبل أن يدعى النبوة ، كلا ، إنهم لقد عرفوه بكل فضيلة وشهر لديهم باسم (الأمين) فكيف ينكرون رسالته ، ولقد قال جعفر ابن أبي طالب رضى الله عنه للنجاشي : إن الله بعث فينا رسولا نعرف نسبه ، ونعرف صدقه وأمانته ، وكذلك قال أبو سفيان لملك الروم حين سأله وأصحابه عن نسبه وصدقه وأمانته ، وقد كانوا بعدُ كفارا لم يسلموا .

(٤) (أم يقولون به جنة) أى أم إن به جنونا فلا يدرى ما يقول ، مع أنهم يعلمون أنه أرجح الناس عقلا وأثقبهم ذهنا وأوفرهم رزانة .

وبعد أن عدد سبحانه هذه الوجوه ونبه إلى فسادها بين وجه الحق فى عدم إيمانهم فقال :

(بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون) أى إن ما جاءهم به هو الحق الذى لامحيص منه ، فما هو إلا توحيد الله وما شرعه لعباده مما فيه سعادة البشر ، لكن أكثرهم جبلوا على الزيغ والانحراف عن الحق ، لما ران على قلوبهم من ظلمات الشرك والإسراف فى الآثام والمعاصى ، ومن ثم فهم لايفقهون الحق ولا تستسيغه نفوسهم فهم له كارهون .

وإنما نسب هذا الحكم للأكثر ، لأن فيهم من ترك الإيمان أنفة من توبيخ قومه وأن يقولوا : ترك دين آبائه ، لا كراهة للحق ، كما أثر عن أبى طالب من قوله :

فوالله لولا أن أجىء بسُبَّة   تجرّ على أشياخنا فى القبائل
إذاً لاتبعناه على كل حالة   من الدهر جدا غير قول التخاذل

ثم بين سبحانه أن اتباع الهوى يؤدى إلى الفساد العظيم فقال :

(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) أى ولو سلك القرآن طريقهم ، بأن جاء مؤيدا للشرك بالله واتخاذ الولد (تعالى الله عن ذلك) وزين الآثام واجتراح السيئات لاختل نظام العالم كما جاء فى قوله : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا » ولو أباح الظلم وترك العدل لوقع الناس فى هرْج ومرْج، ولوقع أمر الجماعات فى اضطراب وفساد ، والمشاهد فى الأمم التى يفشو فيها التخاذل والذلة والمسكنة يئول أمرها إلى الزوال ، ولو أباح العدوان واغتصاب الأموال وأن يكون الضعيف فريسة للقوى ، لما استتبّ أمن وماساد نظام ، وحال العرب قبل الإسلام شاهد صدق على ذلك .

ولو أباح الزنا لفسدت الأنساب وما عرف والد ولده فلا تتكوّن الأسر ولا يكون من يعول الأبناء ولا يبحث لهم عن رزق ، فيكونون شرّدا فى الطرقات لامأوى لهم ، ولاعائل يقوم بشئونهم ، وأكبر برهان على هذا ماهو حادث فى أوربا

الآن من وجود نسل بازدواج غيرشرعى مما تئنّ منه الأمم والجماعات ؛ إلى نحو أولئك مما سبق ذكره من قبل وفصلناه تفصيلا .

و بعد أن أنبّهم إلى كراهتهم للحق ، شنع عليهم لإعراضهم عما فيه الخير لهم وهو يخالف ما جبلت عليه النفوس من الرغبة فى ذلك فقال :

(بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون) أى بل جئناهم بالقرآن الذى فيه فخرهم وشرفهم فأعرضوا عنه ونكصوا على أعقابهم وازدروا به وجعلوه هزوا وسخرية ، وما كان لهم من الخير أن يفعلوا ذلك .

ونحو الآية قوله: « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » .

ثم نفى عن رسوله صلى الله عليه وسلم ما ربما صدّهم عن دعوته وهو طلبه المال منهم أجرا لنصحه وإرشاده فقال :

(أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير) أى أم يزعمون أنك طلبت منهم أجرا على تبليغ الرسالة ، فلأجل هذا لايؤمنون .

والمراد — إنك لاتسألهم أجرا ، فإن ما رزقك الله فى الدنيا والعقبى خير من ذلك ، لسعته ودوامه وعدم تحمل منة فيه ، ولأنك تحتسب أجره عند الله لاعندهم .

ونحو الآية قوله : « قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ » وقوله : « قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ » وقوله : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » .

(وهو خير الرازقين) توكيد لما قبله ، إذ من يكون خير الرازقين يكون رزقه خيرا من رزق غيره .

و بعد أن فنّد آراءهم أتبعها ببيان صحة ما جاء به الرسول وأنه الحق الذى لامعدل عنه فقال :

(و إنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم) أى و إنك لتدعو هؤلاء المشركين من

قومك إلى ذلك الدين القيم الذى تشهد العقول السليمة باستقامته، و بعده عن الضلال والهوى والاعوجاج والزيغ .

وخلاصة ما سبق ما قاله صاحب الكشاف : قد ألزمهم الحجة فى هذه الآيات وقطع معاذيرهم وعللهم - بأن الذى أرسل إليهم رجل معروف أمره ، وحاله مخبور ، وسره وعلنه خليق بأن يجتبى مثله للرسالة من بين ظهرانَيْهم ، وأنه لم يَعْرِض له حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ، ولم يجعل ذلك سلما إلى النيل من دنياهم واستعطاء أموالهم ، ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام الذى هو الصراط المستقيم مع إبراز المكنون من أدوائهم ، وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل ، واستهتارهم بدين الآباء الضُّلال من غير برهان وتعالهم بأنه مجنون بعد ظهور الحق ، وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات النيرة ، وكراهتهم للحق و إعراضهم عما فيه حظهم من الذكر اهـ .

ثم بين أن الذين ينكرون البعث هم فى ضلال مبين فقال :

(وإن الذين لايؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون) أى وإن الذين لايصدقون بالبعث بعد الموت ، وبقيام الساعة ومجازاة الله عباده فى الآخرة - عادلون عن محجة الحق وعن قصد السبيل وهو دين الله الذى ارتضاه لعباده ونصب الأدلة عليه .

(ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضرّ للجوا فى طغيانهم يعمهون) أى إنهم بلغوا فى التمرد والعناد حدا لايرجى معه صلاح لهم ، فلو أنهم ردوا فى الآخرة إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه ، لشدة لجاجهم وتدسيتهم لأنفسهم .

(ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) أى ولقد قتلنا سراتهم بالسيف يوم بدر ، فما خضعوا لربهم ولا انقادوا لأمره ونهيه ، ولا تذللوا ولا ردهم ذلك عما كانوا فيه ، بل استمروا فى غيهم وضلالهم .

ونحو الآية قوله : « فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا » .

ثم أبان عاقبة أمرهم وما يكون من حالهم إذا جاءت الساعة فقال :

(حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذاهم فيه مبلسون) أى حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة وأخذهم من العذاب مالم يكونوا يحتسبون ـ أيسوا من كل خير وانقطعت آمالهم وخاب رجاؤهم .

وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً
مَاتَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩)
وَهُوَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ (٨٠).

شرح المفردات

ذرأكم فى الأرض : أى خلقكم وبثكم فيها ، اختلاف الليل والنهار : تعاقبهما من قولهم : فلان يختلف إلى فلان : أى يتردد عليه بالمجىء والذهاب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه إعراض المشركين عن سماع الأدلة ورؤية العبر والتأمل فى الحقائق ـ أردف ذلك بالامتنان على عباده بأنه قد أعطاهم الحواس من السمع والبصر وغيرهما ووفقهم لاستعمالها ، وكان من حقهم أن يستفيدوا بها ليستبين لهم الرشد من الغى ، لكنها لم تغن عنهم شيئا فكأنهم فقدوها كما قال : « فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَىْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ » ثم ساق أدلة أخرى على وجوده وقدرته فبين أنه أوجدهم من العدم وأن حشرهم إليه ، وأنه هو الذى يحييهم ثم يميتهم وأنه هو الذى يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، أفلا عقل لكم تتأملون به فيما تشاهدون ؟.

الإيضاح

امتن سبحانه على عباده بأمور هى دلائل قدرته وواسع علمه فقال :

(١) (وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة) أى والله هو الذى أحدث لكم السمع لتسمعوا به الأصوات التى تخاطبون بها ، والأبصار لتشاهدوا بها الأضواء والألوان والأشكال المختلفة ، والعقول لتفقهوا بها ما ينفعكم ويوصلكم إلى سعادة الحياتين الدنيا والعقبى .

وخص هـذه الثلاثة بالذكر ، لأنها طريق الاستدلال الحسى والعقلى لمعرفة الموجودات .

(قليلا ما تشكرون) تقول العرب للكفور الجحود للنعمة : ما أقل شكر فلان على نعمتى على معنى أنه لم يشكرها ، فالمراد هنا أنكم لم تشكروه على هذه النعم العظيمة ، وقد كان ينبغى أن تشكروه عليها فى كل حين .

(٢) (وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون) أى وهو الذى خلقكم فى الأرض وبثكم فيها على اختلاف أجناسكم ولغاتكم ، ثم يجمعكم لميقات يوم معلوم فى دار لا حاكم فيها سواه .

(٣) (وهو الذى يحيى ويميت) أى وهو الذى جعل الخلق أحياء بنفخ الروح فيهم بعد أن لم يكونوا شيئا ، ثم يميتهم بعد أن أحياهم ، ثم يعيدهم تارة أخرى للثواب والجزاء .

(٤) (وله اختلاف الليل والنهار) أى وهو الذى سخر الليل والنهار وجعلهما متعاقبين يطلب كل منهما الآخر طلبا حثيثا ، لا يملّان ولا يفترقان كما قال : « لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ » .

ثم أنّب من ترك النظر فى كل هذا فقال :

(أفلا تعقلون ؟) أى أفلا تتفكرون فى هذه الموجودات لتعلموا أن هذه صنع الإله العليم القادر على كل شىء ، وأن كل شىء خاضع له تحت قبضته دالّ على وجوده ؟.

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هٰذَا مِنْ قَبْلُ ، إِنْ هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣) .

شرح المفردات

الأساطير : الأكاذيب واحدها أسطورة كأحدوثة وأعجوبة، قاله المبرد وجماعة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أدلة التوحيد المبثوثة فى الأكوان والأنفس والتى يراها الناس فى كل آن ـ أعقبها بذكر البعث والحشر وإنكار المشركين لهما ، وتردادهم مقالة من سبقهم من الكافرين الجاحدين فى استبعادهما والتكذيب بحصولهما .

الإيضاح

(بل قالوا مثل ما قال الأولون) أى ما اعتبر هؤلاء المشركون بآيات الله ولا تدبروا حججه الدالة على قدرته على فعل كل ما يريد ، كإعادة الأجسام بالبعث ، وحياتها حياة أخرى للحساب والجزاء ، بل قالوا مثل مقالة أسلافهم من الأمم المكذبة لرسلها من قبلهم ، تقليداً لهم دون برهان ولا دليل .

ثم فصل تلك المقالة . فقال :

(قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) أى قالوا أئذا متنا وصرنا ترابا قد بليت أجسامنا وجردت عظامنا من لحومنا : أئنا لمبعوثون من قبورنا أحياء كهيئتنا قبل الممات ؟ إن هذا لن يكون .

ثم أكدوا هذا الإنكار بقولهم :

(لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل) أى قالوا : لقد وعدنا هذا الوعد الذى تعدنا به ، ووعد آباؤنا من قبل مثل هذا على أيدى قوم زعموا أنهم رسل الله ، ثم لم يوجد ذلك مع طول العهد .

ثم زادوا فى تأكيد الإنكار فقالوا :

(إن هذا إلا أساطير الأولين) أى ما هذا الذى تعدنا به من البعث بعد الممات إلا أكاذيب الأولين ، قد تلقفناها منهم دون أن يكون لها ظل من الحقيقة ولا نصيب من الصحة .

ونحو الآية قوله حكاية عنهم : « أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً . قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ . فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » وقوله : « أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » .

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ، (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ؟ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) .

شرح المفردات

تتقون : أى تحذرون عقابه ، الملكوت : الملك والتدبير، يجير: أى يغيث ، من قولهم أجرت فلانا من فلان إذا أنقذته منه ، ولا يجار عليه : أى لا يعين أحد منه أحدا ، تسحرون : أى تخدعون وتصرفون عن الرشد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه شبهات المشركين فى أمر البعث والحساب والجزاء وأحـــوال النشأة الآخرة ـ عقب ذلك بذكر الأدلة التى تثبت تحققه وأنه كائن لا محالة .

الإيضاح

احتج سبحانه عليهم لإثبات البعث ببرهانات ثلاثة :

(١) (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المكذبين بالآخرة من قومك : لمن مُلْك السموات والأرض ومن فيها من الخلق ، إن كنتم من أهل العلم بذلك ؟

وفى قوله : (إن كنتم تعلمون) استهانة بهم وتوكيد لفرط جهالتهم كما لا يخفى .

ولما كانت بداهة العقل تضطرهم أن يجيبوا بأن الخالق لها هو الله ـ أخبر عن الجواب قبل أن يجيبوا فقال :

(سيقولون لله) أى إنهم سيقرون بأنها لله ملكا وخلقا وتدبيراً دون غيره .

ثم رغبهم فى التدبر ليعلموا بطلان ما هم عليه فقال :

(قل أفلا تذكرون؟) أى قل لهم حين يعترفون بذلك موبخا لهم: أفلا تتدبرون فتعلموا أن من قدر على خلق ذلك ابتداء ؟ ـ فهو قادر على إحيائهم بعد مماتهم ، وإعادتهم خلقا جديدا بعد فنائهم .

(٢) (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟) أى قل لهم : من خلق السموات وخلق العرش المحيط بهن كما قال : « وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ » ومن يدبر أمرهن على هذا الوضع البديع والنظام العجيب ؟ كما قال : « فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا » .

(سيقولون لله) الذى له كل شىء وهو رب ذلك ، ليس لهم جواب غيره .

ولما تأكّد الأمر وزاد وضوحا حسن التهديد فقال :

(قل أفلا تتقون ؟) أى قل لهم منكرا وموبخا : أتعلمون ذلك ولا تقون أنفسكم عقاب ربكم ، فتنكروا ما أخبر به من البعث .

وبعد أن قررهم بأن العالَمَيْن العلوى والسفلى ملك له تعالى ــ أمره أن يقررهم بأن له تدبير شئونهما وتدبير كل شىء فقال :

(٣) (قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون) أى قل لهم : مَن المالك لكل شىء ؟ والمدبر لكل شىء ؟ وفى قبضته وتحت سلطانه وتصرفه كل شىء ؟ وهو يغيث من يشاء فيكون فى حرز لايقدر أحد على الدنوّ منه ، ولا يغاث أحد ولا يمنع منه ، لأنه ليس فى العوالم كلها ما هو خارج من قبضته .

والخلاصة ــ إنه المدبر لنظام العالم جميعه وهو الذى يغيث من شاء ولايستطيع أحد أن يغيث منه .

(سيقولون لله) الذى بيده ذلك دون غيره .

(قل فأنى تسحرون ؟) أى قل لهم على طريق الاستهجان والتوبيخ : كيف تُخدعون وتصرفون عن توحيد الله وطاعته ؟ فأنتم بعبادة الأصنام أو بعض البشر قد سحرت عقولكم كأنما غابت عن رشدها ، واعتراها الذهول ، فتصورت الأشياء على غير ما هى عليها .

وقد ثبت بالتجربة أن تكرار الكلام يخدع العقول والحواس حتى تتخيل غير الحق حقا وتتوهم صدق ما يقال وإن كان باطلا ، ومن ثم كثرت المذاهب الإسلامية وابتدع الرؤساء الدينيون والسياسيون من الأساليب ما خدعوا به عقول الشعوب فى دينهم ودنياهم .

والخلاصة — إن الكتاب الكريم عبر عن انصراف المشركين عن الحقائق الملموسة إلى ما لا أصل له إلا فى أوهامهم وخيالاتهم بالسحر ، فإن قوما يعترفون بأنه خالق للسموات والأرض بل للعالم كله ، ثم هم بعد ذلك يقولون إن له شريكا — ليس له من سر إلا أن العقول قد سحرت عن أن تفهم الحقائق ، وعولت على الاقتناع بالترهات والأباطيل .

(بل آتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون) أى ليس الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون من قولهم : إن هذا إلا أساطير الأولين ، بل جئناهم فيه بالدين الحق الذى فيه سعادة البشر ، وإنهم لكاذبون فى إنكار ذلك ، لأن عقولهم قد سحرت بخدع الآباء وتكرار القول وحكم العادة وهى طبيعة ثانية .

مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن المشركين كاذبون فى إنكار البعث والجزاء ، وفى مقالتهم : إن القرآن أساطير الأولين ، قفى على ذلك ببيان أنهم كاذبون فى أمرين آخرين . اتخاذ الله للولد ، وإثبات الشريك له .

الإيضاح

نفى سبحانه عن نفسه شيئين :

(١) (ما اتخذ الله من ولد) أى ليس له ولد كما زعم قوم من المشركين حين

قالوا : الملائكة بنات الله ، وكيف يكون له ذلك ولا مثل له ولا ندّ ، والولد إنما يتخذ للحاجة إلى النصير والمعين ، والله غنى عن كل شىء .

(٢) (وما كان معه من إله) يشركه فى الألوهية لا قبل خلق العالم ولا حين خلقه له ولا بعد خلقه .

ثم ذكر دليلين على بطلان تعدّد الآلهة فقال :

(ا) (إذًا لذهب كل إله بما خلق) أى لو قدّر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق إذ لكل صانع ضرب من الصنعة يغاير صنعة سواه ، فكان يحصل التباين فى نظم الخلق والإيجاد ، ويوجد الاختلاف بين المخلوقات المتحدة الأنواع فلا ينتظم الكون ، والمشاهد أنه منتظم متسق ، وهو الغاية فى الكمال كما قال : « مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ » .

(ب) (ولعلا بعضهم على بعض) أى ولكان لكل منهم أن يطلب قهر الآخر وغلبته ، فيعلو بعضهم على بعض كما هو حال ملوك الدنيا ، وإذ لم تروا أثرا للتحارب والتغالب فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون .

وبعد أن وضح الحق وصار كفلق الصبح جاء بما هو كالنتيجة لذلك فقال :

(سبحان الله عما يصفون) أى تنزه ربنا وتقدّس عما يقوله الكافرون من أن له ولدا أو شريكا .

ثم وصف نفسه بصفات الكمال فقال :

(عالم الغيب والشهادة) أى هو العالم بما غاب عن خلقه من الأشياء فلا يرونه ولا يشاهدونه ، وبما يرونه ويبصرونه ، والمراد أن الذين قالوا بالولد والشريك مخطئون فيما قالوا ، فإنهم يقولون عن غير علم ، وأن الذى يعلم الأشياء شاهدها وغائبها ولا تخفى عليه خافية من أمرها ــ قد نفى ذلك ، فخبره هو الحق دون خبرهم .

(فتعالى عما يشركون) أى تقدس عما يقول الجاحدون الظالمون .

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ، كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) .

شرح المفردات

الهمزات : الوساوس المغرية بمخالفة ما أمرنا به ، واحدها همزة ، وأصل الهمز النخس والدفع بيد أو غيرها ، ومنه مهماز الرائض (حديدة توضع فى مؤخر الرجل ينخس بها الدابة لتسرع) كلا : كلمة تستعمل للردع والزجر عن حصول ما يطلب ، من ورائهم : أى من أمامهم ، برزخ : أى حاجز بينهم و بين الرجعة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه ما لهم من مقالات السوء كإنكار البعث والجزاء واتخاذ الولد ووصف الله بما لا يليق به ، وكان كل هذا مما يدعو إلى استئصالهم وأخذهم بالعذاب — أمر رسوله أن يدعوه بألا يجعله قرينا لهم فيما يحيق بهم من العذاب ، ثم ذكر أنه قدير على أن يعجل لهم العذاب ولكنه أخره ليوم معلوم ، ثم أرشده إلى الترياق النافع فى مخالطة الناس ، وهو إحسان المرء إلى من يسىء إليه حتى تعود عداوته صداقة وعنفه لينا .

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسانَ إحسان

ثم أمره أن يستعيذ من حيل الشياطين وأن يحضروه فى أى عمل من أعماله ، ولا يكون كالكافرين الذين قبلوا همزها وأطاعوا وسوستها ، حتى إذا ما حان وقت الاحتضار تمنوا أن يعودوا إلى الدنيا ليعملوا صالحا ، وإنه لايسمع لمثل هؤلاء دعاء ، فإنه لا رجعة لهم بعد هذا ، وأمامهم حاجز يحول بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا إلى يوم البعث .

الإيضاح

(قل رب إما تريَنّى ما يوعدون . رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين) أى قل رب إن عاقبتهم وأنا مشاهد ذلك فلا تجعلنى فيهم ولا تهلكنى بما تهلكهم به، ونجنى من عذابك وسخطك ، واجعلنى ممن رضيت عنه من أوليائك .

وفى أمره بذلك إيماء إلى أن العذاب قد يلحق غير من هو أهل له كما قال : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَاتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » .

روى الإمام أحمد والترمذى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو « وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنى إليك غير مفتون » .

(وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون) أى وإنا أيها الرسول لقادرون على أن نريك ما ننزله بهم من العذاب ، فلا يحزنك تكذيبهم بك ، وإنما نؤخره حتى يبلغ الكتاب أجله ، علما منا أن بعضهم أو بعض أعقابهم سيؤمن ، ومن جرّاء ذلك لانستأصلهم ولا نمحو آثارهم .

ثم أرشده إلى ما يفعل بهم إذا لحقه أذاهم فقال :

(ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون) أى ادفع الأذى عنك بالخصلة التى هى أحسن بالإغضاء والصفح عن جهلهم والصبر على أذاهم وتكذيبهم بما أتيتهم به من عند ربك ، ونحن أعلم بما يصفوننا به وينحلونه إيانا من الاختلاق والأكاذيب

وبما يقولون فيك من السوء وهجر القول ومجازوهم على ما يقولون ، فلا يحزنك ذلك واصبر صبرا جميلا .

ونحو الآية قوله : « ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ » .

روى عن أنس رضى الله عنه أنه قال فى الآية : « يقول الرجل لأخيه ما ليس فيه فيقول له : إن كنت كاذبا فإنى أسأل الله أن يغفر لك ، وإن كنت صادقا فإنى أسأل الله أن يغفر لى » .

ولما أدب سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يدفع بالحسنى أرشده إلى ما به يقوى على ذلك فقال :

(وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك ربّ أن يحضرون) أى وقل : ربّ ألتجئ إليك من أن يصل إلىّ الشياطين بوساوسهم ، وأن يبعثوا إلىّ أعداءك لإيذائى ، وهكذا يدعو المؤمنون فإن الشيطان لا يصل إليهم إلا بأحد هذين الأمرين .

وإذا انقطع العبد إلى مولاه وتبتل إليه وسأله أن يعيذه من الشياطين استيقظ قلبه وتذكر ربه فيما يأتى ويذر، ودعاه ذلك إلى التمسك بالطاعة وازدجر عن المعصية .

وقد استعاذ صلى الله عليه وسلم أن تحضره الشياطين فى عمل من أعماله ولا سيما حين الصلاة وقراءة القرآن وحلول الأجل .

أخرج أحمد وأبو داود والترمذى وحسنه والبيهقى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا كلمات نقولها عند النوم خوف الفزع : بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ، وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون ، قال فكان ابن عمرو يعلمها من بلغ من أولاده أن يقولها عند نومه ، ومن كان منهم صغيرا لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها فى عنقه » .

وأخرج أحمد عن الوليد بن الوليد أنه قال : « يا رسول الله إنى أجد وحشة ، قال: إذا أخذت مضجعك فقل: أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون ، فإنه لايحضرك وبالحرى لايضرك » .

وروى أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الهرم وأعوذ بك من الهدم ومن الغرق ، وأعوذ بك أن تتخبطنى الشياطين عند الموت » .

ثم أخبر عما يقوله الكافرون حين معاينة الموت من سؤال الرجعة إلى الدنيا ليصلحوا ما كانوا قد أفسدوا حال حياتهم فقال :

(حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . لعلى أعمل صالحا فيما تركت) أى ولا يزال الكافر يجترح السيئات ولا يبالى بما يأتى وبما يذر من الآثام والأوزار، حتى إذا جاءه الموت وعاين ما هو قادم عليه من عذاب الله ندم على ما فات وأسف على ما فرط فى جنب الله وقال : رب ارجعنى إلى الدنيا لأعمل صالحا فيما قصرت فيه من عباداتك وحقوق خلقك .

وخلاصـة ذلك — إنه حين الاحتضار يعاين ما هو مقبل عليه من العذاب فيتمنى أن يرجع إلى الدنيا ليصلح ما أفسد ويطيع فيما عصى .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ، فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ » وقوله : « وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا » وقوله : « وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ » وقوله : « وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ؟ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » .

ومن كل هذا تعلم أنهم يطلبون الرجعة حين الاحتضار، وحين النشور، وحين العرض على الملك الجبار، وحين يعرضون على النار وهم فى غمرات جهنم، فلا يجابون إليها فى كل حال .

(كلا إنها كلمة هو قائلها) أى إنا لانجيبه إلى ما طلب ، لأن طلبه الرد ليعمل صالحا هو قول فقط ولا عمل معه وهو كاذب فيه ، فلو ردّ لما عمل كما قال : «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» .

(ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) أى ومن أمامهم حاجز يحول بينهم و بين الرجوع إلى الدنيا إلى يوم القيامة .

وفى هذا تيئيس لهم من الرجوع أبدا ، لأنهم إذا لم يرجعوا قبل يوم القيامة ، فهم بعدها لا يرجعون أبدا ، لما علم أنه لارجعة بعد البعث إلا إلى الآخرة .

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)
فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ
فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ
النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ
بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ
(١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا
وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ : رَبَّنَا آمَنَّا
فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى
أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ
بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١) .

شرح المفردات

الصور واحدها صورة نحو بسر و بسرة : أى نفخت فى الأجساد أرواحها ، ولا يتساءلون: أى لايسأل بعضهم بعضا ، موازينه أى موزوناته وهى حسناته ، المفلحون: أى الفائزون ، خسروا أنفسهم : أى غبنوها ، تلفح : أى تحرق ، كالحون: أى عابسون متقلصو الشفاه ، الشقوة والشقاوة : سوء العاقبة ، وهى ضد السعادة ، اخسئوا : أى اسكتوا سكوت ذلة وهوان ، سخريا:أى هزوا ، ذكرى: أى خوف عقابى.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن وراء الرجوع إلى الدنيا حاجزاً إلى يوم القيامة — أعقب ذلك بذكر أحوال هذا اليوم فبين أنه عند البعث و إعادة الأرواح فى الأجسام لا تنفع الأحساب ولا يسأل القريب قريبه وهو يبصره ، وأن من رجحت حسناته على سيئاته فاز ونجا من النار ودخل الجنة ، ومن ثقلت سيئاته على حسناته خاب وهلك وأدخل النار خالدا فيها أبدا ، وكان عابس الوجه متقلص الشفتين من شدة الاحتراق ، وأنه يقال لأهل النار توبيخا لهم على ما ارتكبوا من الكفر والآثام : أليسوا قد أرسلت إليكم الرسل ، وأنزلت عليكم الكتب؟ فيقولون بلى، ولكنا لم ننقد لها ولم نتبعها فضللنا ، ربنا ارددنا إلى دار الدنيا ، فإن نحن عدنا فإنا ظالمون مستحقون العقوبة ، فيجيبهم ربهم : امكثوا فى النار صاغرين أذلاء ولا تعودوا إلى سؤالكم هذا ، إنكم كنتم تستهزئون بعبادى المؤمنين وكنتم منهم تضحكون ، إنهم اليوم هم الفائزون جزاء صبرهم على أذاكم واستهزائكم بهم .

الإيضاح

(فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ) أى فإذا أعيدت الأرواح إلى الأجساد حين البعث والنشور ، لا تنفعهم الأنساب ، لأن التعاطف يزول ، والود

يختنق ، لاستيلاء الدهشة والحيرة عليهم واشتغال كل امرئ بنفسه كما جاء فى قوله : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ » .

(ولا يتساءلون) أى ولا يسأل القريب قريبه وهو يبصره ، لاشتغاله بأمر نفسه كما قال : « وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً » وما جاء فى بعض الآيات من إثبات التساؤل بينهم كقوله : « فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ » فإنما هو عند القرار فى الجنة والقرار فى النار .

ثم شرع يبين أحوال السعداء وأحوال الأشقياء حينئذ فقال :

(فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون) أى فمن رجحت موزونات أخلاقه وأعماله فأولئك هم الفائزون بكل مطلوب ، والحائزون لكل مرغوب .

(ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم) أى ومن ثقلت سيئاته على حسناته فأولئك الذين خابوا وآبوا بالصفقة الخاسرة ، إذ هم دسّوا أنفسهم باسترسالهم فى الشهوات وفعل الموبقات .

(فى جهنم خالدون) أى ومآلهم أن يمكثوا فى جهنم لا يخرجون منها أبدا .

ثم وصف حال النار وحالهم فيها فقال :

(تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون) أى تحرق النار وجوههم وهم فيها متقلصو الشفاه من أثر ذلك اللفح .

وإنما خص الوجوه من بين باقى الأعضاء ، لأنها أشرفها ، فذكر ما ينوبها من ألم ويلحقها من أذى يكون أزجر عن المعاصى التى تصل بهم إلى النار .

أخرج ابن مردويه عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قول الله تعالى (تلفح وجوههم النار) تلفحهم لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم .

ثم ذكر ما يقال لهم حينئذ توبيخا وتقريعًا وتذكيراً لما به حق عليهم العذاب

(ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون) أى قد أرسلت إليكم الرسل

وأنزلت عليكم الكتب وأزلت عنكم الشبه ، ولم يبق لكم حجة كما قال : « لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ » وقال : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً » فكذبتم بها وأعرضتم عنها وآذيتم من جاء بها .

ونحو الآية قوله : « كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ » .

ثم ذكر جوابهم عن ذلك فقال .

(قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين) أى قالوا قد قامت علينا الحجة ولم ننقد لها لسوء استعدادنا وتغلُّب شهواتنا ، ولما دسّينا به أنفسنا من الآثام والمعاصى ، ومن ثم ضللنا طريق الهدى ولم نتبع الحق .

ونحو الآية قوله : « فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ » .

والخلاصة — إنا كنا نعرف الحق ولكن العادة وخشية الناس ملكت علينا أمرنا فلم نقدر على الخلاص مما نحن فيه ، وما مثلنا إلا مثل شاربى الخمر والتَّبْغ والمولَعين بحب الكبرياء والعظمة والمغرمين بالإسراف ، فإنهم يعرفون أضرارها ثم لا يجدون سبيلا إلى تركها ولا للبعد عنها .

وبعدئذ حكى دعاءهم ربّهم أن يخرجهم منها: وقولهم فإن عدنا كنا ظالمين فقال :

(ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) أى قالوا ربنا أخرجنا من النار وارددنا إلى الدنيا ، فإن عدنا إلى مثل ما سلف منا من الشرور والآثام كنا ظالمين لأنفسنا جديرين بالعقوبة .

ثم ذكر ما أجيبوا به عن طلبهم هذا فقال :

(قال اخسئوا فيها ولا تكلمون) أى قال امكثوا فيها أذلاء صاغرين واسكتوا ولا تعودوا إلى مثل سؤالكم هذا ، فإنه لا رجعة لكم إلى الدنيا ، وإنما يكلمنى من سمَتْ نفسه إلى عالم الأرواح ، ولبس رداء الخوف والخشية من ربه ، واحتقر الدنيا وشهواتها وعزف عنها لما يرجوه من ربه من ثواب عميم ونعيم مقيم .

ثم بين السبب فيما نالهم من العذاب فقال :

(إنه كان فريق من عبادى يقولون : ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين) أى إن فريقا من عبادى ممن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فى الدنيا يقولون : ربنا آمنا بك وبرسلك وبما جاءوا به من لدنك ، فاستر زلّاتنا ، وآمن روعاتنا ، ولا تخزنا يوم العرض ، ولا تعذبنا بعذابك ، فإنك أرحم من رحم أهل البلاء .

(فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون) أى فتشاغلتم بهم ساخرين منهم ودأبتم على هذا حتى نسيتم ذكرى ولم تخافوا عقابى ، وكنتم تضحكون منهم استهزاء بهم .

والخلاصة — إنكم أضفتم إلى سيئاتكم ، الاستهزاء بمن يفعلون الحسنات ، ويتقربون إلى رب الأرض والسموات ، روى أنها نزلت فى كفار قريش وقد كانوا يستهزئون بالفقراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كبلال وعمار وصهيب .

ونحو الآية قوله : «إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ. وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ» .

ثم ذكر ما جازى به أولئك المستضعفين فقال :

(إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون) أى إنى جزيتهم بصبرهم على الأذى والسخرية بهم — بالفوز بالنعيم المقيم .

والخلاصة — إنهم صبروا فجوزوا أحسن الجزاء .

قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا

لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨) .

شرح المفردات

اللبث: الإقامة ، العادّين: الحفظة العادين لأعمال العباد وأعمارهم ، والعبث: ماخلا من الفائدة ؛ الحق: أى الثابت الذى لايبيد ولا يزول ملكه ، والعرش : هو مركز تدبير العالم ، ووصفه بالكريم لشرفه ، وكل ماشرف فى جنسه يوصف بالكرم كما فى قوله : «وَزَرْعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ» وقوله : «وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا» يدعو : يعبد ، حسابه : أى جزاؤه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر إنكارهم للبعث وأنهم لا يعترفون بحياة إلا ما كان فى هذه الدنيا وأنه بعد الفناء لا حياة ولا إعادة ـ ذكر هنا أنهم بعد أن يستقروا فى النار ويوقنوا أنهم مخلدون فيها أبدا ، يسألون سؤال تقريع وتوبيخ عن مدة لبثهم فى الأرض ، ليستبين لهم أن ماظنوه أمداً طويلا يسير بالنسبة إلى ما أنكروه ، وحينئذ يزدادون حسرة وألمًا على ما كانوا يعتقدون فى الدنيا حين رأوا خلاف ما ظنوا ، ثم بين بعدئذ ما هو كالدليل على وجوده وهو تمييز المطيع من العاصى ، ولولاه لكان خلق العالم عبثا ، تنزه ربنا عن ذلك . ثم أتبع هذا بالرد على من أشرك معه غيره وأنذره بالعذاب الأليم ، ثم أمر رسوله أن يطلب منه غفران الذنوب وأن يثنى عليه بما هو أهله .

الإيضاح

(قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟) أى قال الملَك المأمور بسؤالهم : كم لبثتم فى الأرض أحياء ؟

(قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) فقد نسى هؤلاء الأشقياء مدة لبثهم فى الدنيا لعظيم ماهم فيه من البلاء والعذاب ، وقصّر عندهم الأمد الذى مكثوه فيها ، ما حل بهم من نقمة الله حتى حسبوا أنهم لم يمكثوا إلا يوما أو بعض يوم ، ولعل بعضهم يكون قد أقام بها الزمان الطويل والسنين الكثيرة .

(فاسأل العادّين) أى فاسأل الحفظة العارفين لأعمال العباد وأعمارهم كما روى ذلك جماعة عن مجاهد .

(قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون) أى قال لهم الملَك : ما لبثتم إلا زمنا يسيرا ، ولو كنتم تعلمون شيئا من العلم لعملتم على مقتضى ذلك ، ولما صدر منكم ما أوجب خلودكم فى النار ، ولما قلنا لكم : اخسئوا فيها ولا تكلمون .

روى مرفوعا « أن الله تعالى إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال : يا أهل الجنة كم لبثتم فى الأرض عدد سنين؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، قال : لنعم ما أتجرتم فى يوم أو بعض يوم رحمتى ورضوانى وجنتى ، امكثوا فيها خالدين مخلدين ، ثم يقول يا أهل النار : كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، فيقول بئسما أتجرتم فى يوم أو بعض يوم نارى وسخطى ، امكثوا فيها خالدين مخلدين » .

ثم زاد فى توبيخهم على تماديهم فى الغفلة وتركهم النظر الصحيح فيما يرشد إلى حقية البعث والقيامة فقال :

(أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون) أى أظننتم أيها الأشقياء أنا إنما خلقناكم إذ خلقناكم لعبا وباطلا ؟ كلا ، بل خلقناكم لنهذبكم ونعلمكم ، لترتقوا إلى عالم أرقى مما أنتم فيه ، كما خلتم أنكم لاترجعون إلينا للحساب والجزاء .

وفى هذا إشارة إلى أن الحكمة تقتضى تكليفهم و بعثهم لمجازاتهم على ماقدموا من عمل وأسلفوا من سعى فى الحياة الدنيا .

ثم نزه الله نفسه عما يصفه به المشركون فقال :

(فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) أى تنزه ربنا ذو الملك والملكوت الثابت الذى لايزول والذى ليس هناك معبود سواه وهو ذو العرش الكريم الذى يدبر فيه نظام الكون علويه وسفليه وجميع ما خَلَق عن أن يَخلق الخلق عبثا ، وأن تخلو أفعاله عن الحكم والمقاصد الحميدة ، وأن يكون له ولد أو شريك .

و بعد أن ذكر أنه الملك الحق الذى لا إله إلا هو أتبعه ببيان أن من ادعى أن فى الكون إلها سواه فقد ادعى باطلا وركب شططا فقال :

(ومن يدع مع الله إلها آخر لابرهان له به فإنما حسابه عند ربه) أى ومن يعبد مع ذلك المعبود الذى لاتصلح العبادة إلا له ، معبودا آخر لابيّنة له به ، فجزاؤه عند ربه وهو موفيه مايستحقه من جزاء وعقاب .

وفى ذلك من شديد التوبيخ والتقريع ما لايخفى .

(إنه لايفلح الكافرون) أى إنه لايسعد أهل الشرك ولا ينجيهم من العذاب .

وما ألطف افتتاح السورة بفلاح المؤمنين وختمها بخيبة الكافرين وعدم فوزهم بما يؤملون !.

و بعد أن شرح أحوال الكافرين وجهلهم فى الدنيا وعذابهم فى الآخرة ، أمر رسوله بالانقطاع إليه والالتجاء إلى غفرانه ورحمته بقوله :

(وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) أى وقل أيها الرسول : رب استر علىّ ذنوبى بعفوك عنها ، وارحمنى بقبول توبتى وترك عقابى على ما اجترحت من آثام وأوزار ، وأنت ربنا خير من رحم ذا ذنب فقبل توبته وتجاوز عن عقابه

إنك ربنا خير غافر، وإنك المتولى للسرائر، والمرجوّ لإصلاح الضمائر، وصلّ ربّنا على محمد وآله .

أخرج البخارى ومسلم والترمذى وابن حبّان فى جماعة عن أبى بكر أنه قال يارسول الله علّمنى دعاء أدعو به فى صلاتى قال : « قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ، وإنه لايغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » .

خلاصة ما تضمنته السورة

من الحكم والأحكام والآداب

(١) فوز المؤمنين ذوى الصفات الفاضلة بالفوز والفلاح بدخول الجنات خالدين فيها أبدا .

(٢) ذكر حال النشأة الأولى .

(٣) خلق السموات السبع وإنزال المطر من السماء وإنشاء الجنات من النخيل والأعناب وذكر منافع الحيوان للانسان .

(٤) قصص بعض الأنبياء كنوح وشعيب وموسى وهرون وعيسى عليهم السلام ، ثم أمرهم جميعا بأكل الطيبات وعمل الصالحات .

(٥) لا يكلف الله عباده إلا بما فيه يسر وسجاحة .

(٦) وصف مايلقاه الكافرون من النكال والوبال يوم القيامة وتأنيبهم على عدم الإيمان بالرسول ، وتفنيد المعاذير التى اعتذروا بها .

(٧) ذكر ما أنعم به على عباده من الحواس والمشاعر .

(٨) إنكار المشركين للبعث والجزاء والحجاج على إثبات ذلك .

(٩) النعى على من أثبت الولد والشريك لله .

(١٠) دعاء النبى صلى الله عليه وسلم ربه ألا يجعله فى القوم الظالمين حين عذابهم .

(١١) تعليم نبيه صلى الله عليه وسلم الأدب فى معاملة الناس ، وأمره أن يدعوه بدفع همزات الشياطين عنه .

(١٢) طلب الكفار العودة إلى الدنيا حين رؤية العذاب ، لعلهم إذا عادوا عملوا صالحا .

(١٣) وصف أهوال يوم القيامة و بيان مافيها من الشدائد .

(١٤) أوصاف السعداء والأشقياء .

(١٥) تأنيب الكافرين على طلبهم العودة إلى الدنيا وزجرهم على هذا الطلب .

(١٦) سؤال المشركين عن مدة لبثهم فى الدنيا و بيان أنهم ينسون ذلك .

(١٧) النعى على من عبد مع الله إلها آخر .

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

سورة النور

هى مدنية وآيها أربع وستون .

ووجه اتصالها بما قبلها :

(١) إنه قال فى السورة السالفة « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ » وذكر هنا أحكام من لم يحفظ فرجه من الزانية والزانى وما اتصل بذلك من شأن القذف وقصة الإفك والأمر بغضّ البصر الذى هو داعية الزنا ، وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف ، والنهى عن إكراه الفتيات على الزنا .

(٢) إنه تعالى لما قال فيما سلف إنه لم يخلق الخلق عبثا بل للأمر والنهى — ذكر هنا جملة من الأوامر والنواهى .

روى عن مجاهد أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « علموا رجالكم سورة المائدة ، وعلموا نساءكم سورة النور » وعن حارث بن مضرّب رضى الله عنه قال : كتب إلينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنْ تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) .

شرح المفردات

أنزلناها : أى أعطيناها الرسول كما يقول العبد إذا كلم سيده : رفعت إليه حاجتى ، والفرض : التقدير كما قال: «فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ» وقال « إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ » والمراد هنا تقدير ما فيها من الحدود والأحكام على أتمّ وجه ، بينات : أى واضحات الدلالة على مافيها من الأحكام ، ولعلّ هنا يراد بها الإعداد والتهيئة ، تذكرون : أى تتذكرون وتتعظون .

الإيضاح

امتنّ سبحانه على عباده بما أنزل عليهم فى هذه السورة من الفرائض والأحكام وفصله لهم من أدلة التوحيد و بيناته الواضحة التى لاتقبل جدلاً ليعدّهم بذلك لأن يتعظوا و يعملوا بما جاء فيها مما فيه سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم وفيه صلاحهم، فإن فى حفظ الفروج صيانة للأنساب واطمئنانا على سلامتها مما يشوبها ، كما أن فيه أمناً من حصول الضغائن والأحقاد التى قد تجر إلى القتل وارتكاب أفظع الجرائم بين الأفراد ، وأمناً على الصحة والبعد من الأمراض التى قد تودى بحياة المرء وتوقعه فى أشد المصايب وأعظم ألوان البلاء .

كما جاء فيها توثيق روابط المودة بين أفراد المجتمع ، ففيها نظام دخول البيوت للتزاور ، وفيها حفظ الألسنة وصونها عن الولوغ فى الأعراض بما لا ينبغى أن يقال حتى لاينتشر الفحش بين الناس ، وفيها تحذير للعباد من ذلك « إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

والخلاصة — إنه تعالى ذكر فى أول السورة أنواعا من الأحكام والحدود الشرعية . وفى آخرها الدلائل على وحدانيته وكامل قدرته ، فأشار إلى الأولى بقوله (وفرضناها) و إلى الثانية بقوله : (وأنزلنا فيها آيات بينات) .

والفائدة فى كل هذا اتقاء المحارم والبعد عنها ومعرفة الله المعرفة التى تجعل المرء يخضع لجلاله وعظيم سلطانه ، ويشعر بأنه محاسب على كل ما يعمل من عمل قلّ أو كثر ، فإذا تم له ذلك صلحت نظم الفرد ونظم المجتمع وسادت السكينة والطمأنينة بين الناس .

الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) .

عقوبة الزنا الدنيوية

الزانى والزانية إما أن يكونا محصنين : أى متزوجين ، أو غير محصنين : أى غير متزوجين .

عقوبة المحصنين

إن كان الزانيان محصنين واستوفيا الشروط الآتية ، وهى أن يكونا بالغين عاقلين حرين مسلمين متزوجين بعقد نكاح صحيح — وجب رجمهما : أى رميهما بالحجارة حتى يموتا ، ويكون ذلك فى حفل عامّ للمسلمين ليعتبر بهما غيرهما .

وقد ثبت هذا بالسنة المتواترة ورواه الثقات عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد رواه أبو بكر وعمر وعلىّ وجابر بن عبد الله وأبو سعيد الخُدْرى وأبو هريرة وزيد ابن خالد وبُرَيدة الأسلمى فى آخرين من الصحابة ، وجاء فى رواياتهم أن رجلا من الصحابة يسمى ماعزا أقر بالزنا فرجم ، وأن امرأتين من بنى لخم و بنى غامد أقرتا بالزنا فرجمتا على مشهد من الناس ومرأى منهم .

عقوبة غير المحصنين

إن كان الزانيان غير محصنين فالعقوبة مائة جلدة بحضرة جمع من المسلمين كما بينته الآية ليفتضح أمرها كما تقدم ذلك .

طريق إثبات الزنا

يثبت الزنا بأحد أمور ثلاثة :

(١) الإقرار به وهذا هو الطريق الذى ثبت به الزنا فى الإسلام ، وبه أوقع النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته العقوبة على من زنى .

(٢) الحبل للمرأة بلا زوج معروف لها .

(٣) شهادة أربعة من الشهود يرونهما وهما ملتبسان بالجريمة .

عقوبة الزنا الأخروية

تقدم أن بيّنا المساوى والأضرار التى تنشأ من الزنا للأفراد والجماعات فى الدنيا ، وعلينا أن نذكر هنا حكمه الأخروى فنقول : اتفقت الأمة على أن الزنا من أكبر الآثام ، وأنه من الذنوب التى شدد الدين فى تركها ، وأغلظ فى العقوبة على فعلها ، وجاء فيه من النصوص مالم يأت فى غيره مما حرم الله ، فقد قرن بالشرك فى قوله : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » .

وروى عن حذيفة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يا معشر الناس اتقوا الزنا فإن فيه ست خصال ، ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة ، أما التى فى الدنيا فيذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر ، وأما التى فى الآخرة فسخط الله سبحانه وتعالى وسوء الحساب وعذاب النار » .

وعن عبد الله بن مسعود قال : قلت يا رسول الله ، أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك ، قلت ثم أىٌّ ؟ قال وأن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك ، قلت ثم أىٌّ ؟ قال وأن تزنى بحليلة جارك ، فأنزل الله تصديقها : «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ » .

الإيضاح

(الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) أى من زنى من الرجال أو زنت من النساء وهما حران بالغان عاقلان غير محصنين بزوجين فاجلدوا كلا منهما مائة جلدة عقوبة له على ما أتى من معصية الله .

(ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله) أى ولا تأخذكم بهما رحمة ورقة فى حكم

الله ، فتعطلوا الحدود أو تخففوا الضرب ، بل الواجب عليكم أن تتصلبوا فى دين الله ولا يأخذكم اللين والهوادة فى استيفاء الحدود ، وكفى برسول الله أسوة فى ذلك إذ يقول : « لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » .

(إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) أى إن كنتم تصدقون بالله ربكم وأنكم مبعوثون للحشر ومجازَوْن بالثواب والعقاب . فإن من كان مصدقا بذلك لايخالف أمر الله ونهيه خوف عقابه على معاصيه .

وفى هذا تهييج وإغضاب لتنفيذ حدود الله وإقامة شريعته .

(وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) فإنهما إذا جلدا بمحضر من الناس كان ذلك أبلغ فى زجرهما وأنجع فى ردعهما والزيادة فى تأنيبهما على ما فعلا .

والطائفة: الأربعة فصاعدا كما روى عن ابن عباس ، وعن الحسن: عشرة فصاعدا.

الزَّانِى لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ، وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) .

المعنى الجملى

قال مجاهد وعطاء : قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء ليس لهم أموال ولا عشائر وبالمدينة نساء بغايا يكرين أنفسهن وهن يومئذ أخصب أهل المدينة عيشا ، ولكل منهن علامة على بابها للتعريف عن نفسها والإعلان عن أمرها ، وكان لايدخل عليهن إلا زانٍ أو مشرك ، فرغب فى كسبهن ناس من فقراء المسلمين وقالوا نتزوج بهن إلى أن يغنينا الله عنهنّ ، فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية .

الإيضاح

(الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لاينكحها إلا زانٍ أو مشرك) أى إن الفاسق الفاجر الذى من شأنه الزنا والفسق لايرغب فى نكاح الصوالح من النساء

وإنما يرغب فى فاسقة خبيثة أو فى مشركة مثلها ، والفاسقة المستهترة لا يرغب فى نكاحها الصالحون من الرجال ، بل ينفرون منها ، وإنما يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة ، ولقد قالوا فى أمثالهم : إن الطيور على أشكالها تقع .

ولا شك أن هذا حكم الأعم الأغلب كما يقال : لا يفعل الخير إلا الرجل التقى ، وقد يفعل الخير من ليس بتقى ، فكذا هذا فإن الزانى قد ينكح المؤمنة العفيفة ، والزانية قد ينكحها المؤمن العفيف .

(وحرّم ذلك على المؤمنين) أى إن نكاح المؤمن المتسم بالصلاح ، الزانيةَ ورغبته فيها واندماجه فى سلك الفَسَقَة المشهورين بالزنا ـ محرم عليه لما فيه من التشبه بالفُسَّاق ومن حضور مواضع الفسق والفجور التى قد تسبب له سوء القالة واغتياب الناس له ، وكم فى مجالسة الفساق من التعرض لاقتراف الآثام ، فما بالك بمزاوجة الزوانى والفجار ، وجاء فى الخبر « من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه » .

حكم قذف غير الزوجة من النساء

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) .

شرح المفردات

المراد بالمحصنات هنا : العفيفات الحرائر البالغات العاقلات المسلمات .

المعنى الجملى

بعد أن نفّر سبحانه من نكاح الزانيات وإنكاح الزانين وبيّن أن ذلك عمل لا يليق بالمؤمنين الذين أشربت قلوبهم حب الإيمان والتصديق برسله ـ نهى هنا

عن رمى المحصنات به وشدد فى عقوبته الدنيوية والأخروية ، فجعل عقوبته فى الدنيا الجلد وألا تقبل له شهادة أبدا ، فيكون ساقط الاعتبار فى نظر الناس ملغى القول لا تسمع له كلمة ، وجعل عقوبته فى الآخرة العذاب المؤلم الموجع إلا إذا تاب إلى الله وأناب وأصلح أعماله فإنه يزول عنه اسم الفسوق وتقبل شهادته .

الإيضاح

(والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة) أى إن الذين يشتمون العفيفات من حرائر المسلمين فيرمونهن بالزنا ثم لم يأتوا على ما رموهن به من ذلك بأربعة شهداء عدول يشهدون بأنهم رأوهن يفعلن ذلك ــ فاجلدوهم ثمانين جلدة جزاء لهم على ما فعلوا من ثلم الأعراض وهتك الستر دون أن يكون ذلك بوجه الحق .

(ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا) أى ردوا شهادتهم ولا تقبلوها أبدا فى أىّ أمر من الأمور .

ثم بين سوء حالهم عند ربهم بقوله :

(وأولئك هم الفاسقون) أى وأولئك هم الخارجون عن طاعة ربهم إذ أنهم فسقوا عن أمره وركبوا كبيرة من الكبائر باتهامهم المحصنات الغافلات المؤمنات كذبا وبهتانا ؛ كما قال حسان يمدح أمّ المؤمنين عائشة :

حَصَان رزانٌ ما تُزَنُّ بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل (١)

وهم إن كانوا صادقين فقد هتكوا ستر المؤمنات وأوقعوا السامعين فى شك من أمرهن دون أن يكون فى ذلك فائدة دينية ولا دنيوية لهم ، وقد أمرنا بستر العرض إذا لم يكن فى ذلك مصلحة فى الدين .

---

(١) حصان : عفيفة ، ورزان : حصيفة الرأى ، وتزنّ : تتهم ، وريبة : أى شك فى عرضها ، وغرثى : جائعة ، والمراد أنها لا تغتاب النساء كما هو شأن المرأة .

(إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا) أى إلا الذين رجعوا عما قالوا وندموا على ما تكلموا من بعد ما اجترحوا ذلك الإثم وأصلحوا حالهم .

وقد اختلف فى هذا الاستثناء ، أيعود إلى الجملة الأخيرة فترفع التوبة الفسق فحسب ، ويبقى مردود الشهادة دائما وإن تاب ؟ وإلى هذا ذهب من السلف القاضى شريح وسعيد بن جُبَير وأبو حنيفة ، أم يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة ، وإلى هذا ذهب سعيد بن المسيِّب وجماعة من السلف ، وهو رأى مالك والشافعى وأحمد ، وعليه فتقبل شهادته ويرتفع عنه حكم الفسق .

ثم ذكر علة قبول التوبة فقال :

(فإن الله غفور رحيم) أى فإن الله ستار لذنوبهم التى أقدموا عليها بعد أن تابوا منها ، رحيم بهم فيزيل عنهم ذلك العار الذى لحقهم بعدم قبول شهادتهم ووسمهم بميسم الفسوق الذى وصفوا به .

حكم قذف الرجل زوجه

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ ،فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠) .

شرح المفردات

يرمون : أى يقذفونهم بالريبة وتهمة الزنا ، ولعنة الله: الطرد من رحمته ، ويدرأ : أى يدفع ، والعذاب : الحد ، وغضب الله : سَخَطُه والبعد من فضله وإحسانه .

المعنى الجملى

بعد أن بيّن سبحانه حكم قاذف الأجنبيات بالزنا وذكر أنه لايعفى القاذف عن العقوبة إلا إذا أتى بأربعة شهداء — ذكر هنا ما هو فى حكم الاستثناء من ذلك، وهو قذف الزوجات، فإن الزوج القاذف يعفى من الحد إذا شهد الشهادات المبينة فى الآية، لأن فى تكليف الزوج إحضار الشهود إعناتا له وإحراجا، ولما يلحقه من الغَيرة على أهله ثم كظم الغيظ، إذ لايجد مخلصا من ضيقه.

روى عن ابن عباس أنه قال: «لما نزل قوله تعالى: والذين يرمون المحصنات الخ قال عاصم بن عدىّ الأنصارى: إن دخل منا رجل بيته فوجد رجلا على بطن امرأته فإن جاء بأربعة رجال يشهدون بذلك، فقد قضى الرجل حاجته وخرج، وإن قتله قتل به، وإن قال وجدت فلانا مع تلك المرأة ضرب، وإن سكت سكت على غيظ، اللهم افتح.

وكان لعاصم هذا ابن عم يقال له عويمر وله امرأة يقال لها خَوْلة بنت قيس، فأتى عويمر عاصما فقال: لقد رأيت شريك بن سحماء على بطن امرأتى خولة، فاسترجع عاصم وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ماأسرع ماابتليت بهذا فى أهل بيتى! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما ذاك؟ قال أخبرنى عويمر ابن عمى أنه رأى شريك بن سحماء على بطن امرأته خولة، وكان عويمر وخولة وشريك كلهم بنوعم عاصم، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم جميعا وقال لعويمر اتق الله فى زوجتك وابن عمك ولا تقذفها، فقال: يارسول الله أقسم بالله إنى رأيت شريكا على بطنها وإنى ماقربتها منذ أربعة أشهر وإنها حبلى من غيرى، فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم: اتقى الله ولا تخبرى إلا بما صنعتِ، فقالت يارسول الله: إن عويمرا رجل غيور وإنه رأى شريكا يطيل النظر إلىّ ويتحدث فحملته الغَيْرة على ماقال، فأنزل الله هذه الآية، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم

فنودى (الصلاة جامعة) فصلى العصر ثم قال لعويمر : قم وقل أشهد بالله إن خولة لزانية و إنى لمن الصادقين ، ثم قال : قل أشهد بالله إنى رأيت شريكا على بطنها و إنى لمن الصادقين ، ثم قال : قل أشهد بالله إنها حبلى من غيرى و إنى من الصادقين ثم قال : قل أشهد بالله إنها زانية و إنى ماقربتها منذ أربعة شهور و إنى لمن الصادقين ثم قال : قل لعنة الله على عويمر (يعنى نفسه) إن كان من الكاذبين فيما قال ، ثم قال : اقعد ، وقال لخولة : قومى فقامت وقالت أشهد بالله ما أنا بزانية و إن عويمرا زوجى لمن الكاذبين ، وقالت فى الثانية : أشهد بالله ما رأى شريكا على بطنى و إنه لمن الكاذبين ، وقالت فى الثالثة : إنى حبلى منه ، وقالت فى الرابعة أشهد بالله إنه ما رآنى على فاحشة قط و إنه لمن الكاذبين ، وقالت فى الخامسة : غضب الله على خولة إن كان عويمر من الصادقين فى قوله ، ففرق رسول الله بينهما » .

« وفى رواية عن ابن عباس : أنها حين كانت تؤدى الشهادة الخامسة قالوا إنها الموجبة التى توجب عليك العذاب فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف ، ثم قالت والله لا أفضح قومى فشهدت فى الخامسة كما تقدم ، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتفريق بينهما وألا يدعى ولدها لأب ، وأن لامسكن لها عليه ولامؤنة ، من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ولا وفاة » فصار هذا سنة المتلاعنين وسمى عملهما (اللعان والملاعنة) .

وفى رواية « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ابصروها فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الإليتين فلا أراه إلا قد صدق ، و إن جاءت به أحيمر كأنه وَحَرَةٌ (سحلية) فلا أراه إلا كاذبا فجاءت به على النعت المكروه » .

الإيضاح

(والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين)

أى والأزواج الذين يقذفون زوجاتهم بالزنا ، ولم يكن لهم شهداء يشهدون لهم بصحة ماقذفوهن به من الفاحشة ، فعلى كل منهم أن يشهد أربع شهادات إنه لصادق فيما رماها به من الزنا ، والشهادة الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما اتهمها به .

(ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) أى ويدفع عنها العقوبة الدنيوية وهى الحد أن تحلف بالله أربعة أيمان إن زوجها الذى رماها بما رماها به من الفاحشة ــ لمن الكاذبين فيما قال ، والشهادة الخامسة أن غضب الله عليها إن كان زوجها صادقا فيما اتهمها به .

وخُصتِ الملاعِنة بأن تخمّس بغضب الله عليها تغليظا عليها ، لأنها هى سبب الفجور ومنبعه بخديعتها وإطماعها الرجل فى نفسها .

وبعد أن ذكر حكم الرامى المحصنات وللأزواج بين أن فى هذا تفضلا بعباده ورحمة بهم فقال :

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله توّاب حكيم) أى ولولا تفضله سبحانه عليكم ورحمته بكم وأنه قابل لتوبتكم فى كل آن وأنه حكيم فى جميع أفعاله وأحكامه التى منها ماشرعه لكم من اللعان ــ لفضحكم وعاجلكم بالعقوبة ولكنه ستر عليكم ودفع عنكم الحد باللعان ، إذ لو لم يشرع لكم ذلك لوجب على الزوج حد القذف مع أن قرائن الأحوال تدل على صدقه ، لأنه أعرف بحال زوجه ، وأنه لايفترى عليها لاشتراكهما فى الفضيحة ، ولو جعل شهادته موجبة لحد الزنا عليها لأهمل أمرها وكثر افتراء الزوج عليها لضغينة قد تكون فى نفسه من أهلها ، وفى كل هذا خروج من سبق الحكمة والفضل والرحمة ، ومن ثم جعل شهادات كل منهما مع الجزم بكذب أحدهما دارئة عنه العقوبة الدنيوية ، وإن كان قد ابتلى الكاذب منهما فى تضاعيف شهادته بأشد مما درأه عن نفسه وهو العقاب الأخروى .

حديث الإفك على أم المؤمنين عائشة

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ
بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي
تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ
وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ
بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ
(١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا
أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ
بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ
(١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ، سُبْحَانَكَ
هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ
الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا
خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ
أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو

الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) .

شرح المفردات

الإفك : أبلغ الكذب والافتراء ، والعصبة: الجماعة، وكثر إطلاقها على العشرة فما فوقها إلى الأربعين ، وقد عدت عائشة منها المنافق عبد الله بن أبي بن سلول وقد تولى كبره وحَمْنة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب رضى الله عنها وزوج طلحة ابن عبيد الله ومِسْطَح بن أثاثة وحسان بن ثابت ، كبره (بكسر الكاف وضمها وسكون الباء) أى معظمه فقد كان يجمعه ويذيعه ويشيعه ، (لولا) كلمة بمعنى هلاّ تفيد الحث على فعل مابعدها، مبين : أى ظاهر مكشوف ، أفضتم : أى خضتم فى حديث الإفك ، تلقونه : أى تتلقونه ويأخذه بعضكم من بعض ، يقال تلقى القول وتلقنه وتلقفه ومنه « فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ » سبحانك : تعجب ممن تفوّه به ، بهتان : أى كذب يبهت سامعه ويحيره لفظاعته ، يعظكم : أى ينصحكم، تشيع : أى تنتشر ، الفاحشة : الخصلة المفرطة فى القبح وهى الزنا ، وخطوات واحدها خطوة (بالضم) مابين القدمين من المسافة ، ويراد بها نزغات الشيطان ووساوسه ، والمنكر : ما تنكره النفوس فتنفر منه ، زكا : أى طهر من دنس الذنوب ، ولا يأتل : أى لايحلف ، الفضل : الزيادة فى الدين ، السعة : الغنى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حكم من قذف الأجنبيات وحكم من قذف الزوجات ـ ذكر فى هذه الآيات العشر براءة عائشة أم المؤمنين مما رماها به أهل الإفك والبهتان من المنافقين ، صيانة لعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومجمل القصص ما رواه البخارى وغـيره عن عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة قالت .

«كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرجت قرعتها استصحبها ، فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج سهمى (نصيبى) فخرجت معه بعد نزول آية الحجاب فحُملت فى هودج فسرنا حتى إذا قفلنا ودنونا من المدينة نزلنا منزلا ثم نودى بالرحيل ، فقمت ومشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى ، فلمست صدرى فإذا عِقْدى من جِزْع ظَفَارِ قد انقطع فرجعت فالتمسته فحبسنى ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى وهم يحسبون أنى فيه لخفتى فلم يستنكروا خفة الهودج وذهبوا بالبعير ووجدت عقدى بعد ما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس فيها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلى وظننت أنهم سيفقدوننى ويعودون فى طلبى ، فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت ، وكان صفوان بن المُعَطَّل السُّلَمى من وراء الجيش ، فلما رآنى عرفنى فاستيقظت باسترجاعه ، فخمّرت وجهى بجلبابى ووالله ماتكلمت بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته فوطئ على يديها ، فقمت إليها فركبتها وانطلق يقود بالراحلة حتى أتينا الجيش بعـد أن نزلوا فى نحر الظهيرة ، وافتقدنى الناس حين نزلوا وماج القوم فى ذكرى ، فبينا الناس كذلك إذ هجمت عليهم فخاضوا فى حديثى فهلك من هلك ، وكان الذى تولى الإفك عبد الله بن أبى ، فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهرا والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك لا أشعر بشىء من ذلك ، ويريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ فذلك يريبنى ولا أشعر بالشر ، حتى خرجت بعد ما نقهت ، وخرجت مع أم مِسْطَح قِبَل (المناصع) وهو متبرزنا ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل قبل أن نتخذ الـكُنُف قريبا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول فى التنزه فى البرية ، وكنا نتأذى بالـكنف أن

أن نتخذها عند بيوتنا ، فانطلقت أنا وأم مسطح (هى ابنة أبى رُهْم بن المطلب بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق) قبل بيتى حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح فى مِرْطها فقالت : تعس مسطح ، فقلت أتسبين رجلا قد شهد بدرا ؟ فقالت : أىْ هَنَتَاهْ أولم تسمعى ما قال ؟ قلت : وما قال ؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك فازددت مرضا على مرضى ، فلما رجعت إلى منزلى ودخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال كيف تيكم ؟ قلت أتأذن لى أن آتى أبوىّ ؟ قال نعم ، قالت وأنا حينئذ أريد أن أستثبت الخبر من قبلهما ، فجئت أبوىّ فقلت لأمى : أى أمتاه ، ماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت : أىْ بُنية هوّنى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها : قالت قلت سبحان الله ، أو قد تحدث الناس بهذا و بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت نعم ، قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لايرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ؟ ثم أصبحت فدخل علىّ أبو بكر وأنا أبكى، فقال لأمى مايبكيها؟ قالت : لم تكن علمت ما قيل لها ، فأكب يبكى ، فبكى ساعة ثم قال : اسكتى يا بُنية ، فبكيت يومى ذلك لايرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم بكيت ليلى المقبل لايرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم حتى ظن أبواى أن البكاء سيفلق كبدى ، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب وأُسامة بن زيد حين استلبث الوحى يستشيرهما فى فراق أهله ، قالت: فأما أسامة فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذى يعلم من براءة أهله و بالذى فى نفسه من الود ، فقال : يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم إلا خيرا ، وأما علىّ فقال : لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير ، و إن تسأل الجارية (يعنى بَرِيرة) تصْدُقْك ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال : هل رأيتِ من شىء يريبك من عائشة ؟ قالت : والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الدواجن فتأكله ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من

عبد الله بن أبيّ فقال وهو على المنبر : يا معشر المسلمين من يعذِرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى ؟ فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى ، فقام سعد بن مُعاذ الأنصارى رضى الله عنه فقال : أنا أعذِرك يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فقام سعد بن عُبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمِيّة ، فقال أىْ سعد بن معاذ : لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من أهلك ما أحببت أن يقتل ، فقام أُسَيد بن حُضَير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عُبادة ، كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر ، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا ، ثم أتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا فى بيت أبوىّ ، فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى استأذنت علىّ امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى ، قالت فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جلس عندى ولم يجلس عندى منذ قيل ماقيل ، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه فى شأنى بشىء ، قالت فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال : أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قَلَص دمعى حتى ما أحس منه دمعة ، قلت لأبى : أجب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال ، قال والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت لأمى : أجيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن ، إنى والله قد عرفت أن قد سمعتم بهذا حتى استقر فى أنفسكم حتى كدتم أن تصدقوا به ، فإن قلت لكم إنى بريئة (والله يعلم أنى بريئة) لا تصدقونى

بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقُنّى ، وإنى والله لا أجد لى ولكم مثلا إلا كما قال يوسف : «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ» ثم توليت فاضطجعت على فراشى وأنا والله أعلم أنى بريئة وأن الله سيبرئنى ببراءتى ، ولكنى والله ماكنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى ، ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فىّ بأمر يتلى ، ولكنى كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام رؤيا يبرئنى الله بها ، قالت والله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج من البيت أحد حتى أنزل الله على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء عند الوحى حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق فى اليوم الشاتى من ثقل القول الذى ينزل عليه ، قالت : فلما سُرّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك ،كان أول كلمة تكلم بها أن قال : أبشرى يا عائشة، إن الله قد برأك ، فقالت لى أمى قومى إليه ، فقلت والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله، هو الذى أنزل براءتى ، فأنزل الله : « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ » العشر الآيات كلها ، فلما أنزل الله هذا فى براءتى قال أبو بكر وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره : والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعد الذى قال لعائشة ، فأنزل الله : «وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ ـ إلى قوله ـ غَفُورٌ رَحِيمٌ» فقال أبو بكر : إنى لأحب أن يغفر الله لى ، فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه ، وقال لا أنزعها منه أبدا .

قالت عائشة : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش عن أمرى وما سمعت ، فقالت يا رسول الله : أحمى سمعى و بصرى ، والله ما رأيت إلا خيرا .

قالت عائشة : وهى التى كانت تساميني ، فعصمها الله بالورع ، وطفقت أختها حَمْنَة تحارب لها ، فهلكت فيمن هلك» .

وكان مسروق إذا حدث عن عائشة يقول : حدثتنى الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبرأة من السماء .

الإيضاح

(إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) أى إن الذين جاءوا بالكذب والبهتان جماعة منكم أيها المؤمنون تعاونوا وأجمعوا أمرهم على إعلانه و إذاعته بين الناس لمقاصد لهم أخفوها والله عليم بما يفعلون .

وفى التعبير (بعصبة) بيان أن هؤلاء شرذمة قليلون وأنهم هم الذين ينشرونه ، لا أنهم عدد كثير من الناس .

(لاتحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم) أى لاتظنوا أن فيه فتنة وشرا ، بل هو خير لكم لاكتسابكم به الثواب العظيم ، لأنه كان بلاء مبينا ومحنة ظاهرة ، ولظهور كرامتكم على الله بإنزال قرآن يتلى مدى الدهر فى براءتكم وتعظيم شأنكم ، ولما فيه من تهويل الوعيد لمن تكلم فيكم والثناء على من ظن بكم خيرا ، إلى نحو ذلك من الفوائد الدينية والآداب التى لاتخفى على من تأملها .

ثم ذكر عقاب من اجترحوه ـ كل منهم بقدر ماخاض فيه فقال :

(لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم) أى لكل امرئ منهم جزاء مااجترح من الإثم بقدر ماخاض فيه ، فإن بعضهم تكلم ، و بعضهم ضحك كالمسرور الراضى بما سمع ، و بعضهم أقلّ و بعضهم أكثر .

(والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) أى والذى تحمل معظم ذلك الإثم منهم وهو عبد الله بن أبيّ (عليه اللعنة) له عذاب عظيم فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فبإظهار نفاقه على رءوس الأشهاد ، وأما فى الآخرة فبعذاب لايقدر قدره إلا العليم الحكيم .

وقد كان هو أول من اختلقه لإمعانه فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وقال الضحاك : الذى تولى كبره حسان ومسطح فجلدهما صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عذرها وجلد معهما امرأة من قريش ، وإنما أضاف الكبر إليه لأنه ابتدأ بذلك القول ، لاجرم حصل له من العقاب مثل ماحصل لكل من قال ذلك لقوله عليه الصلاة والسلام « من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

ثم عاتب الله أهل الإيمان به فيما وقع فى أنفسهم من إرجاف من أرجف فى أمر عائشة وزجرهم بتسعة أمور :

(١) (ولولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين) أى هلا إذ سمعتم ماقال أهل الإفك فى عائشة ظننتم بمن اتُّهِم بذلك خيرا ، لأن الإيمان يحملكم على إحسان الظن ويكفكم عن إساءتكم أنفسكم أى أمثالكم من المؤمنين الذين هم كأنفسكم كما قال « وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ » وقال « إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ » وهلا قلتم حينئذ هذا كذب ظاهر مكشوف ؟ فإن الذى وقع لم يكن فيه مايرتاب منه ـ ذاك أن مجىء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان وقت الظهيرة والجيش أجمعه يشاهد ذلك ، ورسول الله بين أظهرهم ينفى كل شك ، وإنما قيل ماقيل لحسد فى القلوب كامن ، وبغض فى النفس مكتوم .

ثم علل سبحانه كذب الآفكين ووبخهم على مااختلقوه وأذاعوه بقوله :

(٢) (لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء) أى هلا جاء الخائضون فى الإفك بأربعة شهداء يشهدون على ثبوت ماقالوا وما رموها به .

(فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) أى فحين لم يقيموا بينة على ماقالوا فأولئك المفسدون هم الكاذبون فى حكم الله وشرعه .

(٣) (ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم) أى ولولا تفضله سبحانه عليكم فى الدنيا بضروب النعم التى من أجلها الإمهال للتوبة ، ورحمته فى الآخرة بالعفو بعد التوبة ـ لعجل لكم العقاب فى الدنيا من جراء ماخضتم فيه من حديث الإفك والبهتان .

ثم بين سبحانه وقت حلول العذاب الذى كانوا يستحقونه لولا الفضل والرحمة بقوله :

(٤) (إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم) أى ولولا تفضله ورحمته لمسكم ذلك العذاب وقت تلقيكم ماأفضتم فيه من الإفك وأخذ بعضكم إياه من بعض بالسؤال عنه ، وقولكم قولا بالأفواه دون أن يكون له منشأ فى القلوب يؤيده ، وظنكم إياه هينا سهلا لايعبأ به ، وهو من العظائم والكبائر عند الله .

وخلاصة ذلك ـ إنه وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام وعلق مس العذاب العظيم بها:

(ا) تلقى الإفك بالألسنة ، فقد كان الرجل يلقى أخاه فيقول له ماوراءك ، فيحدثه حديث الإفك حتى شاع وانتشر حتى لم يبق بيت ولا ناد إلا طار فيه ، فهم قد فعلوا جهد المستطاع فى نشره .

(ب) إنه قول بلا روية ولا فكر ، فهو قول باللسان لايترجم عما فى القلب ، إذ ليس هناك علم يؤيده ولا قرائن أحوال وشواهد تصدقه .

(حـ) استصغار ذلك وحسبانه مما لا يؤبه له ، وهو عند الله عظيم الوزر، مستحق لشديد العقوبة .

(٥) (ولولا إذ سمعتموه قلتم مايكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم) أى وهلا حين سمعتموه ممن بدأ به وانتحله أو ممن تابعه فى القول ـ قلتم تكذيبا له وتهويلا لشأن ما ارتكبه من الجُرْم :لايحل لنا أن نتكلم بهذا ولا ينبغى لنا أن نتفوه به سبحانك رب ـ هذا كذب صراح يحير السامعين أمره لما فيه من جرأة على بيت كريم شهير بالعفاف والطهر ، ولما فيه من مس عرض ذلك البيت المقدس ، بيت النبوة الذى هو فى الذروة العليا من الإجلال والاحترام وعظيم المكانة ؛ وإذا جاز الخوض فيه على هذه الشاكلة فماذا يبقى للمؤمنين بعدئذ ؟ أفليس هؤلاء هم الأسوة الحسنة ، وينبوع الطهر ومنهم يقتبس المؤمنون فضائل الدين وشريف الأخلاق ؟

وإنا لنبرأ إليك ربنا منه وأن تلوكه ألسنتنا وأن يحمل الهواء تلك النبرات الصوتية لتصل إلى أسماعنا ، كما نبرأ إليك ربنا من كل أفاك أثيم سولت له نفسه أن يكون الوسيلة فى انتشار هذا القول الكاذب بين المؤمنين .

وخلاصة هذا ـ تنزه ربنا أن يرضى بظلم هؤلاء القاذفين وألا يعاقبهم على عظيم ماارتكبوا وعلى كبير مااجترحوا من الإثم والفسوق ، وأن توسم زوج نبيه بالفجور ، والعقل والدين يمنعان الخوض فى مثل هذا ، لأن فيه إيذاء للنبى صلى الله عليه وسلم والله يقول « إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » ولأن فيه إشاعة الفاحشة التى أمر الله بسترها ، ولأن فى إظهار محاسن الناس وترك معايبهم تخلقا بأخلاق الله وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « تخلقوا بأخلاق الله » .

ثم حذرعباده المؤمنين أن يعودوا لمثل هذا فقال :

(٦) (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين) أى يعظكم الله بهذه المواعظ التى بها تعرفون عظم هذا الذنب وكبير هذا الجُرْم ، وأن فيه النكال والعقاب بالحد فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة ، كى لاتعودوا لمثله أبدا إن كنتم من أهل الإيمان تتعظون بعظات الله ، وتأتمرون لأمره وتنتهون عما نهاكم عنه .

وفى قوله : (إن كنتم مؤمنين) إيماء إلى أن الإيمان لايمنع من فعل هذا .

(ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) أى ويفصل الله لكم فى كتابه آيات التشريع ومحاسن الفضائل والآداب، وهو العليم بكم ، لايخفى عليه شىء منها ، فيجازى المحسن منكم بإحسانه ، والمسىء بإساءته ، الحكيم فى تدبير شئونكم وفيما كلفكم به مما فيه سعادتكم فى معاشكم ومعادكم ، وبه تسمو نفوسكم وترقى إلى عالم الأرواح وتكونون خير الأمم فى سياسة الشعوب وعمارة الأرض وإقامة ميزان العدل بين أفرادها « وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ » ولقد صدق الله وعده وعمر أسلافنا الأولون ما كان معروفا فى ذلك الحين وبثوا فيه فضائل الدين وسماحته

حتى صاروا مضرب الأمثال ، فلما انحرفوا عن الصراط السوى والنهج القويم تقلص ظلهم وذهب ريحهم وصاروا أذلاء مستعبدين بعد أن كانوا السادة الحاكمين ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ولما كان من أنفع المواعظ بيان مايستحقه المذنب من العقاب على جُرْمه بيّن ذلك بقوله :

(٧) (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة) أى إن الذين يحبون أن يذيع الزنا فى المحصنين والمحصنات من المؤمنين والمؤمنات ، لهم عذاب موجع فى الدنيا بإقامة الحد عليهم واللعن والذم من الناس ، وفى الآخرة بعذاب النار وبئس القرار .

وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر مانهى الله عنه » وعنه عليه السلام أنه قال : «لايستر عبد مؤمن عورة عبد مؤمن إلا ستره الله يوم القيامة ، ومن أقال عثرة مسلم أقال الله عثرته يوم القيامة » .

(والله يعلم وأنتم لاتعلمون) فردوا الأمور إلى ربكم ترشدوا ، ولا ترووا مالاعلم لكم به ، ولا سيما حلائل رسول الله صلى الله عليه وسلم فتهلكوا .

ثم كرر فضله ورحمته على عباده للمنة عليهم بترك المعاجلة بالعقاب فقال :

(٨) (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم) أى ولولا أن الله تفضل عليكم وأبقاكم بعد الخوض فى الإفك ومكنكم من التلافى بالتوبة لهلكتم ، لكنه لرأفته بعباده لايدع ما هو أصلح للعبد و إن جنى على نفسه .

و بعدئذ حذر عباده من اتباع وساوس الشيطان فقال :

(٩) (يأيها الذين آمنوا لاتتبعوا خطوات الشيطان) أى يأيها الذين صدقوا الله ورسوله لاتسلكوا سبل الشيطان وطرقه ، ولا تقتفوا آثاره بإشاعتكم الفحشاء فى الذين آمنوا و إذاعتكموها فيهم بروايتكم إياها عمن نقلها إليكم .

ثم ذكر سبب النهى فقال :

(ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر) أى ومن يتبع الشيطان ارتكب الفحشاء والمنكر ، فإنه لايأمر إلا بهما ، ومن هذا شأنه لاينبغى اتباعه ولا طاعته .

ثم أكد منته على عباده فقال :

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا) أى ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم بتوفيقكم للتوبة التى تمحو الذنوب وتغسل أدرانها ما طهر أحد منكم من ذنبه وكانت عاقبته النكال والوبال ، ولعاجلكم بالعقوبة كما قال : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ » .

(ولكن الله يزكى من يشاء) أى ولكن الله جلت قدرته يطهر من يشاء من خلقه بقبول توبتهم من تلك الذنوب التى اجترحوها تفضلا منه ورحمة كما فعل بمن سلم من داء النفاق ممن وقع فى حديث الإفك كحسان ومِسْطح وغيرهما .

(والله سميع عليم) أى والله سميع لما تقولون بأفواهكم من القذف وإثبات البراءة ، عليم بما فى قلوبكم من محبة إشاعة الفاحشة أو كراهتها ، ومجازيكم بكل ذلك .

وفى هذا حث لهم على الإخلاص فى التوبة والابتعاد جَهْد المستطاع عن المعصية وارتكاب الأوزار والآثام .

(ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين) أى ولا يحلف من كان ذا فضل وسعة منكم أيها المؤمنون بالله ، ألا يعطوا ذوى قرابتهم المساكين المهاجرين كمسطح ابن خالة أبى بكر الذى كان فقيرا وهاجر من مكة إلى المدينة وشهد مع رسول الله بدرا .

روى أن الآية نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه حين حلف أن لاينفع مسطح ابن أثاثة بنافعة أبدا بعد ما قال فى عائشة ما قال .

ذلك أنه بعد أن أنزلت براءة عائشة وطابت النفوس وتاب الله على من تكلم من المؤمنين فى ذلك وأقيم الحد على من أقيم عليه ـ تفضل وله الحمد والمنة فعطّف الصديق على قريبه مسطح وكان ابن خالته وكان مسكينا لا مال له وكان من المهاجرين فى سبيل الله وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها وضرب الحدّ عليها .

(وليعفوا وليصفحوا) أى وليتركوا عقوبتهم على ذلك بحرمانهم مما كانوا يؤتونهم قبل ذلك ، وليعودوا لهم إلى مثل الذى كان لهم عليهم من الإفضال .

ثم رغبهم فى العفو والتفضل فقال :

(ألا تحبون أن يغفر الله لكم) أى ألا تحبون أن يستر الله عليكم ذنوبكم بإفضاله عليكم ، والجزاء من جنس العمل ، فكما تغفر ذنب من أذنب إليك يغفر الله لك ، وكما تصفح يصفح الله عنك ، فحينئذ قال الصديق : بلى والله نحب أن تغفر لنا ربّنا ، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال والله لا أنزعها منه أبدا .

(والله غفور رحيم) أى والله غفور لذنوب من أطاعه واتبع أمره ، رحيم به أن يعذبه على ما كان له من زلة قد استغفر منها وتاب إليه من فعلها .

وفى هذا ترغيب عظيم فى العفو ووعد كريم عليه بالمغفرة من الذنوب وحث على مكارم الأخلاق .

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) .

شرح المفردات

المحصنات : العفيفات ، الغافلات : أى عن الفواحش وهن النقيات القلوب اللاتى لايفكرن فى فعلها ، لعنوا : أى طردوا من رحمة الله فى الآخرة وعذبوا فى الدنيا بالحدّ ، دينهم : أى جزاءهم ومنه «كما تدين تدان» الحق : أى الثابت الذى يحق لهم لامحالة ، أن الله : أى وعده ووعيده ، الحق : أى العدل الذى لاجَوْر فيه.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص أم المؤمنين عائشة وبين عقاب من اتهمها بالإفك وشديد عذابه يوم القيامة وأسهب فى هذا — أعقب ذلك ببيان حكم عام وهو أن كل من اتهم محصنة مؤمنة غافلة من الخنا والفجور — فهو مطرود من رحمة الله بعيد عن دار نعيمه معذب فى جهنم إلا إذا تاب وأحسن التوبة وعمل صالحا .

الإيضاح

(إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم) أى إن الذين يتهمون بالفاحشة العفيفات الغافلات عنها المؤمنات بالله ورسوله — أُبْعِدُوا من رحمة الله فى الدنيا والآخرة ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم جزاء ما اقترفوا من جناياتهم ، فهم مصدر قالة السوء فى المؤمنات و إشاعة الفاحشة بين المؤمنين والقدوة السيئة لمن يتكلم بها ، فعليهم وزرها ووزر من تكلم بها كما ورد فى الحديث : « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ».

(يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) أى ولهم ذلك العذاب الذى لايقدر قدره يوم يجحدون ما اكتسبوا فى الدنيا من الذنوب حين سؤالهم عنها ، فتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون من قول أو فعل ، إذ ينطقها الله بقدرته فتخبر كل جارحة منها بما صدر منها من أفاعيل صاحبها .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ : لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ؟ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ » .

عن أبى سعيد الخدْرىّ أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يوم القيامة عُرِّف الكافر بعمله ، فيجحد ويخاصم ، فيقال هؤلاء جيرانك يشهدون عليك ، فيقول كذبوا ، فيقال أهلك وعشيرتك ، فيقول كذبوا ، فيقال احلفوا فيحلفون ، ثم يُصمّهم الله فتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ثم يدخلهم النار» .

ويرى فريق من المفسرين أن الشهادة هنا ليست الشهادة باللسان ، بل شهادة الإثبات والبيان ، إذ كل ما يعمله الإنسان فى الدنيا من قول أو فعل تنطبع له صورة على العضو الذى فعله ، فالكلمة يقولها تنطبع لها صورة على اللسان ، واليد التى تمتد لفعل شىء ، والرجل التى تخطو إلى عمل ، كل ذلك يحفظ على نفس الجارحة التى فعلته ، فما أشبه ذلك بالصور التى تؤخذ اليوم لأصابع المجرمين و بصمات أيديهم وأرجلهم فى قلم تحقيق الشخصية للرجوع إليها إذا دعت الحاجة إلى ضبط أولئك المجرمين ، فما ينطبع إذ ذاك على اللسان واليد والرجل يكون كافيا جد الكفاية فى إثبات الجرم على أولئك المجرمين والطغاة الظالمين .

(يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق و يعلمون أن الله هو الحق المبين) أى فى هذا اليوم يوفيهم الله جزاءهم على أعمالهم و يعلمون أن ما كانوا يوعدون به فى حياتهم الدنيا من العذاب هو الحق الذى لاشك فيه و يزول عنهم كل ريب كان قد ألمّ بهم فى الدار الأولى .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «اجتنبوا السبع الموبقات ، قيل وما هن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » رواه الشيخان .

قال صاحب الكشاف : ولو قلّبت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة

لم تر أن الله قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها ، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعقاب البليغ والزجر العنيف واستعظام ما ركب من ذلك ، واستفظاع ما أقدم عليه ، على طرق مختلفة ، وأساليب مفتنة ، كل واحد منها كاف في بابه ، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعا وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة بأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا و بهتوا وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الذى هم أهله اه .

الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ ، وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ ، وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ، أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) .

المعنى الجملى

بعد أن برأ سبحانه عائشة مما رميت به من الإفك، ثم ذكر أن رامى المحصنات الغافلات مطرود من رحمة الله — أردف ذلك بدليل ينفى الريبة عن عائشة بأجلى وضوح — ذاك أن السنة الجارية بين الخلق مبنية على مشاكلة الأخلاق والصفات بين الزوجين ، فالطيبات للطيبين والخبيثات للخبيثين ، ورسول الله من أطيب الطيبين ، فيجب كون الصديقة من أطيب الطيبات على مقتضى المنطق السليم ، والعادة الشائعة بين الخلق .

الإيضاح

(الخبيثات للخبيثين) أى الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال لا يتجاوزنهم إلى غيرهم .

(والخبيثون للخبيثات) أى والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ، لأن المجانسة من دواعى الألفة ودوام العشرة .

(والطيبات للطيبين) أى والطيبات من النساء للطيبين من الرجال لما قدعرفت من الأنس بمن يحاكيك فى الصفات ويجانسك فى الفضل والكمال .

(والطيبون للطيبات) أى والطيبون أيضا للطيبات منهن لايتجاوزونهن إلى من عداهن .

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أطيب الأطيبين ، وخيرة الأولين والآخرين ، استبان أن الصديقة رضى الله عنها من أطيب الطيبات واستبان بطلان ما أشاعه المرجفون من أهل الإفك .

(أولئك مبرءون مما يقولون) أى أولئك الطيبون والطيبات ومنهم صفوان وعائشة مبرءون مما يقول الخبيثون والخبيثات من النساء .

(لهم مغفرة ورزق كريم) أى لهم مغفرة عن ذنوبهم التى اقترفوها من قبل ، ورزق كريم عند ربهم فى جنات النعيم .

(تنبيه) هذه الآية الكريمة تشرح الغرائز والطباع وتبين أن الإنسان بل هذا الوجود لاتلاؤم بين أجزائه إلا بصفات متناسبة ، فالكرة الأرضية متجاذبة الأجزاء وكرة الهواء مطيعة لمجموعها لما بينها من تناسب وتشابه فى الصفات ، وهكذا أخلاق الناس وصفاتهم إذا تشابهت اتفقوا ، وهم يكونون يوم القيامة كذلك ، لايجتمعون إلا حيث يتفقون .

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٢٧) فَإِن لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ، وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا

فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) .

شرح المفردات

حتى تستأنسوا : أى حتى تستأذنوا ، إذ به يحصل أنس أهل البيت ، وبدونه يستوحشون ويشق عليهم ذلك ، تذكرون: أى تتعظون ، أزكى: أى أطهر ، جناح: أى حرج ، متاع : أى حق تمتع ومنفعة كإيواء الأمتعة والرحال والشراء والبيع كحوانيت التجارة والفنادق والحمامات ونحوها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حكم قذف المحصنات الأجنبيات وحكم قذف الزوجات ، ثم أتبع ذلك بقصص أهل الإفك وبسط ذلك غاية البسط ، وكان مما يسهل السبيل إلى التهمة فى كل هذا وجود الخلوة بين رجل وامرأة ــ أعقب ذلك بحكم دخول المرء بيت غيره ، وبين أنه لايدخله إلا بعد الاستئذان والسلام حتى لايوجد بحال تورث التهمة التى أمرنا بالابتعاد عنها جهد الطاقة ، إلى أن الإنسان قد يكون فى بيته ومكان خلوته على حال لايود أن يراه غيره عليها .

روى عدى بن ثابت عن رجل من الأنصار «أن امرأة قالت يارسول الله : إنى أكون فى بيتى على الحال التى لا أحب أن يرانى عليها أحد لا والد ولا ولد ، فيأتينى آت فيدخل علىّ فكيف أصنع ؟ فنزلت (يأيها الذين آمنوا) الآية » .

الايضاح

(يأيها الذين آمنو لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) أدب الله عباده المؤمنين بآداب نافعة فى بقاء الود وحسن العشرة بينهم ،

ومن ذلك ألا يدخلوا بيوت غيرهم إلا بعد الاستئذان والسلام حتى لايطلعوا على عورات سواهم ، ولا ينظروا إلى ما لايحل لهم النظر إليه ولا يقفوا على الأحوال التى يطويها الناس فى العادة ويتحفظون من اطلاع أحد عليها - إلى أن فى هذا تصرفا فى ملك غيرك فلا بد أن يكون برضاه .

وينبغى أن يكون الاستئذان ثلاث مرات ، فإن أُذن له دخل وإلا انصرف ، فقد ثبت فى الصحيح أن أبا موسى الأشعرى حين استأذن على عمر ثلاثا فلم يؤذن له انصرف ، ثم قال عمر : ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس (يعنى أبا موسى) يستأذن ؟ ائذنوا له ، فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال ما أرجعك؟ قال إنى استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى وإنى سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فلينصرف » .

(ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون) أى الاستئذان والتسليم والانتظار حتى يؤذن لكم خير من الدخول بغتة أو من الدخول على عادة الجاهلية ، فقد كان الرجل منهم إذا أراد أن يدخل بيتا غير بيته يقول حييتم صباحا ، حييتم مساء ، ثم يدخل فربما أصاب الرجل مع امرأته فى لحاف واحد .

وقد أرشدكم ربكم إلى ذلك كى تتذكروا وتتعظوا وتعملوا بما أمرتم به .

(فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم) أى فإن لم تجدوا فيها أحدا ممن يملك الإذن بأن كان فيها عبد أو صبى فلا تدخلوها حتى يأذن لكم من يملكه وهو رب الدار .

وقد استثنى من ذلك ما إذا دعت الضرورة إلى الدخول فورا كإطفاء حريق أو منع حدوث جناية أو نحو ذلك .

(وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم) أى وإن قال لكم أهل البيت الذى تستأذنون فيه ارجعوا فارجعوا ، فإن الرجوع أطهر لكم فى دينكم ودنياكم ، لأن رب الدار قد يستوحش ويتأذى بوقوف غيره على بابه بعد منع الاستئذان ،

ولما فى ذلك من الدناءة والتسكع على بيوت الناس ، وربما ظُن بأهل البيت سوء من وقوف الأجانب على أبوابهم .

(والله بما تعملون عليم) أى والله عليم بكل مقاصدكم ونواياكم من دخول البيوت ومجازيكم على ذلك .

ولما بين حكم البيوت المسكونة بين حكم البيوت غير المسكونة فقال :

(ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم) أى ليس عليكم أيها المؤمنون إثم ولا حرج أن تدخلوا بيوتا غير معدة لسكنى قوم معينين ، بل معدة ليتمتع بها من يحتاج إليها كائنا من كان كالفنادق والحوانيت والحمامات ونحوها مما فيه حق التمتع لكم كالمبيت فيها وإيواء الأمتعة والبيع والشراء والاغتسال ونحو ذلك ، لأن السبب الذى لأجله منع دخول البيت وهو الاطلاع على عورات الناس والوقوف على أسرارهم - غير موجود فيها .

روى أن أبا بكر قال «يا رسول الله : إن الله قد أنزل عليك آية فى الاستئذان، وإنا لنختلف فى تجارتنا فننزل هذه الخانات ، أفلا ندخلها إلا بإذن ؟ فنزلت الآية» .

(والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) أى والله عليم بما تظهرون بألسنتكم من الاستئذان إذا استأذنتم على أهل البيوت المسكونة ، وما تضمرون من حب الاطلاع على عورات الناس أو من قصد ريبة أو فساد .

وفى هذا من الوعيد الشديد ما لا يخفى .

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ، ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ

أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ، وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ، وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) .

شرح المفردات

غض بصره : خفض منه ، والخُمُر : واحدها خمار، وهو ماتغطى به المرأة رأسها (طرحة) والجيوب واحدها جيب : وهوفتحة فى أعلى القميص يبدو منها بعض الجسد، والبعولة : الأزواج واحدهم بعل ، والإربة : الحاجة إلى النساء ، والطفل : يطلق على الواحد والجمع ، لم يظهروا : أى لم يعلموا عورات النساء لصغرهم .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه عن دخول البيوت إلا بعد الاستئذان والسلام على أهلها منعا للقيل والقال والاطلاع على عورات الناس وأسرارهم ـ أمر رسوله أن يرشد المؤمنين إلى غض البصر عن المحارم لمثل السبب المتقدم ، إذ ربما كان ذلك ذريعة إلى وقوع المفاسد وانتهاك الحرمات التى نهى الدين عنها .

الإيضاح

(قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) أى قل أيها الرسول للمؤمنين كفوا أبصاركم عما حرم الله عليكم ولا تنظروا إلا ما يباح لكم النظر إليه ، فإن وقع البصر على محرم من غير قصد فليصرفوا أبصارهم عنه سريعا لما رواه مسلم عن عبد الله البَجَلىّ قال :

« سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجاءة فأمرنى أن أصرف بصرى » ، وروى أبوداود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلىّ : « ياعلىّ لاتُتْبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة » ، وفى الصحيح عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياكم والجلوسَ على الطرقات ، قالوا يا رسول الله لابد لنا من مجالسنا نتحدث فيها ، فقال صلى الله عليه وسلم: إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه ، قالوا وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال غض البصر وكفّ الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

والحكمة فى ذلك : أن فى غض البصر سدا لباب الشر ، ومنعا لارتكاب المآثم والذنوب ، ولله در أحمد شوقى حيث يقول :

نظرة فابتسامة فسلام ... فكلام فموعد فلقاء

(ويحفظوا فروجهم) بمنعها من عمل الفاحشة ، أو بحفظها من أن أحدا ينظر إليها ، وقد جاء فى الحديث : « احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك » .

(ذلكم أزكى لكم) أى ما ذكر من غض البصر وحفظ الفرج أطهر من دنس الريبة وأنفع دينا ودنيا فقد قالوا : النظر بريد الزنا ورائد الفجور ، ولله در شاعرهم :

كل الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فعلت فى قلب فاعلها ... فعل السهام بلا قوس ولا وتر
والمرء ما دام ذا عين يقلبها ... فى أعين العِين موقوف على الخطر
يسر ناظره ما سر خاطره ... لا مرحبا بسرور عاد بالضرر

(إن الله خبير بما يصنعون) فلا يخفى عليه شىء مما يصدر منهم من الأفعال كإجالة النظر واستعمال سائر الحواس ، وماذا يراد بذلك ، فلتكونوا على حذر منه تعالى فى كل ماتأتون وما تذرون .

و بعد أن أمر رسوله بأمر المؤمنين بغض أبصارهم أمره بأن يأمر المؤمنات بذلك .

(وقل المؤمنات يغضضن من أبصارهن) فلا ينظرن إلى ما لايحل لهن النظر إليه من عورات الرجال والنساء (ما بين السرة والركبة) وإذا نظرن إلى ماعدا ذلك بشهوة حرم ، وبدونها لايحرم ، ولكن غض البصر عن الأجانب أولى بهن وأجمل ؛ لما روى أبو داود والترمذى عن أم سلمة « أنها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وميمونة إذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه بعد ما أُمِرْنا بالحجاب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجبا منه ، فقلت يا رسول الله : أليس هو أعمى لايبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو عمياوان أنتما ؟ أو لستما تبصرانه ؟ » .

(ويحفظن فروجهن) عما لايحل لهن من الزنا والسحاق ويسترنها حتى لايراها أحد .

(ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) أى ولا يظهرن شيئا من الزينة للأجانب إلا ما لايمكن إخفاؤه مما جرت العادة بظهوره كالخاتم والكحل والخضاب ، وإنما المؤاخذة فى إبداء ما خفى من الزينة كالسوار والخلخال والدُّمْلُج والقلادة والإكليل والوشاح والقُرْط ، لأن هذه الزينة واقعة فى مواضع من الجسد (وهى الذراع والساق والعضد والعنق والرأس والصدر والأذن) لايحل النظر إليها إلا لمن استثنى فى الآية بعد .

ولما نهى عن إبداء الزينة أرشد إلى إخفاء بعض مواضعها فقال :

(وليضربن بخمرهن على جيوبهن) أى وليلقين خمرهن على جيوبهن ليسترن بذلك شعورهن وأعناقهن وصدورهن حتى لايرى منها شىء ، وكان النساء يغطين رءوسهن بالخمر ويسدلنها من وراء الظهر فتبدو نحورهن وبعض صدورهن كعادة الجاهلية فنهين عن ذلك ، قالت عائشة : رحم الله النساء المهاجرات الأول لما أنزل الله (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) شققن مروطهن فاختمرن بها .

(ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن) أى قل للمؤمنات لا يظهرن هذه الزينة الخفية إلا لأزواجهن ، فإنهم المقصودون بها ، والمأمورات نساؤهم بصنعها لهم ، حتى إن لهم ضربهن على تركها ، ولهم النظر إلى جميع بدنهن ، أو لآباء النساء أو لآباء الأزواج أو لأبنائهن أو لأبناء أزواجهن أو لأخواتهن أو لأبناء الإخوة أو لأبناء الأخوات ، لكثرة المخالطة بينهم و بينهن ، وقلة توقع الفتنة من قبلهم ولأن الطباع السليمة تأبى أن تفتتن بالقريبات ، إلى أنهن محتاجات إلى صحبتهم فى الأسفار للركوب والنزول .

(أو نسائهن) أى المختصات بهن بالصحبة والخدمة .

(أو ما ملكت أيمانهن) من الجوارى ، أما العبيد فقد اختلفوا فيهم ، فقال قوم عبد المرأة محرم لها فيجوز له الدخول عليها إذا كان عفيفا ، وله أن ينظر إلى بدن مولاته إلا ما بين السرة والركبة كالمحارم ، وروى ذلك عن عائشة وأم سلمة ، وقد روى أن عائشة كانت تمتشط وعبدها ينظر إليها ، وقال قوم هو كالأجنبى معها وهو رأى ابن مسعود والحسن وابن سيرين ، ومن ثم قالوا لا ينظر العبد إلى شعر مولاته ، وسئل طاوس هل يرى غلام المرأة رأسها وقدمها ؟ قال ما أحب ذلك إلا أن يكون غلاما يسيرا ، فأما رجل ذو لحية فلا .

(أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال) وهم الذين يتبعون القوم ليصيبوا من فضل طعامهم لا غرض لهم إلا ذلك ولا حاجة لهم إلى النساء ، إما لأنهم طعنوا فى السن ففنيت شهواتهم ، وإما لكونهم ممسوحين قطعت منهم أعضاء التناسل .

(أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) أى أو الأطفال الذين لم يبلغوا سن الشهوة والقدرة على ملامسة النساء .

ثم نهى عن إظهار وسوسة الحلى بعد النهى عن إبداء مواضعه فقال :

(ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) أى ولا يضربن بأرجلهن

الأرض لتقعقع خلاخلهن ، فإن ذلك مما يهيج الرجال ويورث ميلا إليهن ، وللنساء أفانين فى هذا فقد يجعلن الخرز ونحوه فى جوف الخلخال ، فإذا مشين ولو هونا كان له رنين وصوت خاص ، ومن الناس من تهيجه وسوسة الحلى أكثر مما تهيجه رؤيته .

(وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) أى ارجعوا أيها المؤمنون إلى طاعة الله فيما أمركم به ونهاكم عنه من غض البصر وحفظ الفرج وترك دخول بيوت غيركم بلا استئذان ولا تسليم ، تفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة .

أخرج أحمد والبخارى والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر أنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « أيها الناس توبوا إلى الله ، فإنى أتوب إليه كل يوم مائة مرة » .

ومن شرط التوبة : الإقلاع عن الذنب والندم على ما مضى والعزم على ألا يعود إليه ورد الحقوق إلى أهلها ، لا كما يظن الناس الآن أنها كلمة تلاك باللسان دون أن يكون لها أثر فى القلب ولا عزم على عدم العود ، حتى إن كثيرا ممن يزعمون أنهم تابوا من الذنب يحكون مافعلوه من الآثام على وجه الفخر والاستلذاذ بذكره ، وهذا دليل على أنهم كاذبون فى توبتهم مراءون فى أفعالهم .

وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ، وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ

بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٣٤).

شرح المفردات

الأيامى : واحدهم أيم وهو كما قال النضر بن شُميل كل ذكر لا أنثى معه ، وكل أنثى لا ذكر معها بكرا كانت أو ثيبا ، ويقال آمت المرأة وآم الرجل إذا لم يتزوجا بكرين أو ثيبين ، وكثر استعماله فى الرجل إذا ماتت امرأته وفى المرأة إذا مات زوجها ، والصالحين : أى الصالحين للنكاح والقيام بحقوقه ، والإماء : واحدهن أمة وهى الرقيقة غير الحرة ، واسع : أى غنى ، وليستعفف : أى وليجتهد فى العفة : لا يجدون : أى لا يتمكنون من وسائله وهى المال . والكتاب والمكاتبة : كالعتاب والمعاتبة يراد بها شرعا إعتاق المملوك بعد أداء شىء من المال منجما أى فى موعدين أو أكثر فيقول له كاتبتك على كذا درهما ويقبل المملوك ذلك ، فإذا أداه عتق وصار أحق بمكاسبه ، كما صار أحق بنفسه ، والفتيات : واحدهن فتاة ، ويراد بالفتى والفتاة لغة العبد والأمة ، والبغاء : الزنا ، والتحصن : العفة ، لتبتغوا أى لتطلبوا : عرض الحياة الدنيا : أى الكسب وبيع الأولاد ، مبينات : أى مفصلات ما أنتم فى حاجة إلى بيانه من الأحكام والآداب ، مثلا : أى قصة عجيبة من قصص الماضين كقصة يوسف ومريم .

المعنى الجملى

لما أمر سبحانه بغض الأبصار وحفظ الفروج ونحوهما مما يفضى إلى السفاح أعقبه بالأمر بإنكاح الأيامى ، لأنه الوسيلة لبقاء هذا النوع وحفظ الأنساب الذى يستدعى مزيد الشفقة على الأولاد وحسن تربيتهم ودوام الألفة بينهم ؛ ثم ذكر حكم من يعجز عن ذلك لعدم وجود المال لديه ، ثم رغب فى مكاتبة الأرقاء ، ليصيروا

أحرارا فى أنفسهم وفى أموالهم يتزوجون كما يشاءون ، و بعدئذ أردف ذلك بالنهى عن إكراه الإماء على الفجور إن أردن العفة ، ابتغاء ظل زائل من عرض الدنيا .

ثم ختم هـذا ببيان أنه أنزل عليكم فى هذه السورة وفى غيرها آيات مبينات لكل ما أنتم فى حاجة إلى بيانه من أحكام وآداب وحدود زاجرة ، وعقوبات رادعة، وقصص عجيبة عن الماضين وأمثال مضروبة لتكون عبرة وذكرى لكم .

الإيضاح

(وأنكحوا الأيامى منكم) أى زوّجوا من لازوج له من الأحرار والحرائر : أى من الرجال والنساء ، والمراد بذلك المساعدة بكل الوسائل حتى يتسنى لهم ذلك كمدهم بالمال وتسهيل الوسائل التى بها يتم ذلك الزواج والمصاهرة .

(والصالحين من عبادكم و إمائكم) أى والقادرين والقادرات على النكاح والقيام بحقوق الزوجية من الصحة والمال ونحو ذلك .

والخلاصــة — إن فى الآية أمرا للأولياء بتزويج من لهم عليهم حق الولاية وللسادة بتزويج العبيد والإماء ، والجمهور قد حملوا الأمر على الاستحسان لا على الوجوب، لأنه قد كان فى عصر النبى صلى الله عليه وسـلم وفى سائر العصور بعـده أيامى من الرجال والنساء ولم ينكر ذلك أحد عليهم ، والظاهر أن الأمر يكون للوجوب إذا خيفت الفتنة وغلب على الظن حصول السفاح من الرجل أو المرأة .

ثم رغب فى الزواج بالفقير والفقيرة وألا يكون عدم وجدان المـال حائلا عن إتمـامه فقال :

(إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) أى لاتنظروا إلى فقر من يخطب إليكم أو فقر من تريدون زواجها ، ففى فضل الله ما يغنيهم والمال غاد ورائح .

وكم يسر أتى من بعد عسر   وفرّج كُرْبة القلب الشجىّ

(والله واسع عليم) أى والله ذو سعة وغنى ، فلا انتهاء لفضله ولا حد لقدرته ،

فهو يسع هذين الزوجين وغيرهما ، وهو عليم يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

قال ابن عباس : أمر الله سبحانه بالنكاح ورغبهم فيه وأمرهم أن يزوجوا أحرارهم وعبيدهم ووعدهم فى ذلك الغنى .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والغازى فى سبيل الله» .

وبعد أن بين حال القادرين على النكاح ووسائله ، بين حال العاجزين عن تلك الوسائل فقال :

(وليستعفف الذين لايجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله) أى وليجتهد فى العفة وصون النفس من لايتمكن من المال الذى به يتم النكاح ، ولينتظر أن يغنيه الله من فضله حتى يصل إلى بغيته من النكاح ، وقد جاء فى الحديث الصحيح : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحفظ للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء » الباءة مؤن النكاح من مهر ونفقة وكسوة ، والوجاء نوع من الخصاء يكون برض عروق الأنثيين مع بقاء الخصيتين كما هما ، فشبه الصوم فى قطعه شهوة النساء به .

(والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا) أى والمماليك الذين يطلبون من سادتهم أن يكاتبوهم على أداء مال معين نجوما ليصيروا بعد أدائها أحرارا ، ويكونون قادرين على الكسب وأداء ما كوتبوا عليه مع الأمانة والصدق ـ فكاتبوهم ويكونون بعد انتهاء الأجل وأداء ما أوجبوه على أنفسهم أحرارا فى رقابهم وفى كسبهم .

ثم حث المؤمنين جميعا على تحرير الرقاب فقال :

(وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) أى وآتوا أيها السادة المكاتبين شيئا من مال الله الذى أعطاكم وليس لكم فيه فضل ، فإن الله ربكم ورب عبيدكم ، وأموالكم

ملكه ، وأعطوا أيها الحكام المكاتبين سهومهم التى جعلها الله لهم فى بيت المال فى مصارف الزكاة بقوله (وفى الرقاب) أى فى تحرير الأرقاء .

وفى هذا حث لجميع المؤمنين على عتق الرقاب ، روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة حق على الله عونهم : المكاتب الذى يريد الأداء ، والناكح يريد العفاف ، والمجاهد فى سبيل الله » .

ثم نهى المؤمنين عن السعى فى جمع المال بسبل الحرام فقال :

(ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) أى ولا تكرهوا إماءكم على الزنا إن كنّ يردن التعفف والتحصن ، التماسا لعرض الدنيا من مال وزينة ورياش .

وفى قوله : (إن أردن تحصنا) زيادة فى تقبيح حالهم وتشنيع عليهم ، فإن ذا المروءة لا يرضى بفجور من يحويه بيته من إمائه ، فضلا عن أمرهن بذلك أو إكراههن عليه ولا سيما عند إرادة التعفف وتوافر الرغبة فيه .

والخلاصة — لا تفعلوا ما أنتم عليه من إكراه الإماء على البغاء طلبا لمتاع سريع الزوال وشيك الفناء والاضمحلال .

أخرج مسلم وأبو داود عن جابر رضى الله عنه أن جارية لعبد الله بن أبىّ ابن سلول يقال لها (مُسَيْكة) وأخرى يقال لها (أُميمة) كان يكرههما على الزنا فشكتا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية .

وأخرج ابن مردويه عن على كرم الله وجهه أنهم كانوا فى الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا ليأخذوا أجورهن ، فنهوا عن ذلك فى الإسلام ونزلت الآية .

ثم أبان أنهن إن أكرهن فالوزر على من أكرههن لا عليهن فقال :

(ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) أى ومن يكرههن على البغاء فإن الله غفور رحيم لهن من بعد إكراههن والذنب على المكره لهن ، وكان الحسن إذا قرأ الآية قال : لهن والله ، لهن والله .

وبعد أن فصل هذه الأحكام وبيّنها امتنّ على عباده بذلك فقال :

(ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين)

أي ولقد أنزلنا آيات القرآن مبينات لما أنتم فى حاجة إليه من الأحكام والآداب ، كما أنزلنا قصصا من أخبار الأمم السالفة كقصة يوسف وقصة مريم وفيها شبه بقصص عائشة ، وفيها عظة لمن اتقى الله وخاف عقابه وخشى عذابه .

وأثر عن على كرم الله وجهه فى وصف القرآن : فيه حكم ما بينكم ، وخبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله .

ٱللَّهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) .

شرح المفردات

نور : أى ذو نور أى هو هادٍ أهل السموات والأرض ، والمراد العالم كله . والمشكاة : لفظ حبشى معرّب يراد به الكوة غير النافذة . الزجاجة : القنديل من الزجاج . والدرىّ : المضىء المتلألئ منسوب إلى الدر . لاشرقية ولا غربية : أى ضاحية للشمس لا يظلها جبل ولا شجر ولا يحجبها عنها شىء من الشروق إلى الغروب . يضرب الله الأمثال : أى يبين للناس الأشباه والأمثال .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه أنزل فى هذه السورة آيات مبينات لكل مايحتاج إليه الناس فى صلاح أحوالهم فى معاشهم ومعادهم من الشرائع والأحكام والآداب والأخلاق بين أنه نور السموات والأرض بما بث فيهما من الآيات الكونية والآيات التى أنزلها على رسله دالة على وجوده ووحدانيته وسائر صفاته من قدرة وعلم إلى نحو أولئك ، هادية إلى صلاح أمورهم فى الدنيا والآخرة .

الإيضاح

(الله نور السموات والأرض) أى الله هاد أهل السموات والأرض بما نصب من الأدلة فى الأكوان وبما أنزل على رسله من الآيات البينات ، فهم بنوره إلى الحق يهتدون ، وبهداه من حيرة الضلال ينجون .

(مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) أى مثل أدلته التى بثها فى الآفاق وهدى بها من شاء من عباده كنور مشكاة فيها سراج ضخم ثاقب له الصفات الآتية .

(المصباح فى زجاجة) أى وذلك المصباح فى قنديل من الزجاج الصافى الأزهر .

(الزجاجة كأنها كوكب درىّ) أى الزجاجة كأنها كوكب ضخم مضىء من درارى النجوم وعظامها كالزَّهرة والمُشْترى .

(يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية) أى رويت ذبالته (فتيلته) بزيت شجرة زيتونة كثيرة المنافع ، زرعت على جبل عال أوصحراء واسعة فهى ضاحية للشمس لايظلها جبل ولا شجر ولا يحجبها عنها حاجب من حين طلوعها إلى حين غروبها ، فزيتها أشد مايكون صفاء .

فقوله : (لاشرقية ولا غربية) أى لاشرقية فحسب ، ولا غربية فحسب ، بل هى شرقية غربية تصيبها الشمس من حين طلوعها إلى حين غروبها كما يقال فلان لامسافر ولا مقيم إذا كان يسافر أحيانا ويقيم أخرى .

(يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار) أى هو لصفائه وبريقه ولمعانه كأنه يضىء بنفسه دون أن تمسه النار ، لأن الزيت إذا كان خالصا صافيا ثم رئى من بعد يرى كأن له شعاعا ، فإذا مسته النار ازداد ضوءا على ضوء ـ كذلك قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه ازداد نورا على نور وهدى على هدى .

قال يحيى بن سلام : قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يبيَّن له ، لموافقته إياه ، وهو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله ».

(نور على نور) أى هو نور مترادف متضاعف ، قد تناصرت فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت حتى لم يبق مما يقوى النور ويزيده إشراقا ويمده بإضاءة بقية .

ذاك أن المصباح إذا كان فى مكان ضيق كالمشكاة كان أضوأ له وأجمع لنوره ، بخلاف المكان الواسع فإن الضوء ينبعث فيه وينتشر ، والقنديل أعون شىء على زيادة الإنارة ، وكذلك الزيت وصفاؤه .

(يهدى الله لنوره من يشاء) أى يوفق الله من يشاء من عباده لإصابة الحق بالنظر والتدبر وتوجيه الفكر لسلوك طريق الجادّة الموصلة إليه ، ومن لم يتدبر فهو كالأعمى سواء لديه جُنْح الليل الدّامس ، وضَحْوة النهار الشامس، وعن على رضى الله عنه : « الله نوّر السموات والأرض ونشر فيهما الحق وبثه فأضاءا بنوره » .

(ويضرب الله الأمثال للناس) أى ويسوق الله الأمثال للناس فى تضاعيف هدايتهم على حسب ما تدعو إليه حالهم ، لما فيها من الفوائد فى النصح والإرشاد ، إذ بها تتفتق الأذهان للوصول إلى الحق ، وبها تأنس النفس بتصويرها المعانى بصور المحسوسات التى تألفها وتدين بها ، ولأمر ما كثرت فى القرآن الكريم فقلّما ساق حجاجا أو أقام دليلا إلا أردفه بالمثل ليكون أدعى إلى الإقناع ، وأرجى للاقتناع .

(والله بكل شىء عليم) فيعطى هدايته من يستحقها ممن صفت نفوسهم ،

واستعدوا لتلقى أحكام الدين وآدابه ؛ وكذلك يجعل وسائلها على ضروب شتى على حسب اختلاف أحوال عباده ، لتقوم له الحجة عليهم .

وفى هذا وعد و بشارة لمن تدبر الأمثال ووعاها ، ووعيد و إنذار لمن لم يتفكر فيها ولم يكترث بها ، فإنه لايصل إلى الحق ولا يهتدى لطريقه .

وخلاصة ذلك ما قاله ابن عباس : هذا مثل نور الله وهداه فى قلب المؤمن ، فكما يكاد الزيت الصافى يضىء قبل أن تمسه النار ، فإذا مسته ازداد ضوءا على ضوء ـ يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه ازداد هدى على هدى ونورا على نور .

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)

شرح المفردات

المراد بالبيوت : المساجد ، وأذن : أمر . أن ترفع : أى أن تعظم وتطهر عن الأنجاس وعن اللغو من الأقوال . يسبح : أى ينزه و يقدس . الغدو والغداة : أول النهار . والآصال : واحدها أصيل وهو العشى : أى آخر النهار . تلهيهم : أى تشغلهم وتصرفهم . تجارة : أى نوع من هذه الصناعة ، ولا بيع : أى فرد من أفراد البياعات وخصه بالذكر لأنه أدخل فى الإلهاء ، وإقام الصلاة : أى إقامتها لمواقيتها ،

وإيتاء الزكاة : أى المال الذى فرض إخراجه لمستحقين ، واليوم : هو يوم القيامة ، وتتقلّب فيه القلوب والأبصار : أى تضطرب وتتغير من الهول والفزع .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر - جلّت آلاؤه - نوره لعباده وهدايته إياهم على أتم الوجوه - بين هنا حال من حصلت لهم الهداية بذلك النور، وذكر بعض أعمالهم القلبية والحسية .

الإيضاح

(فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه) أى كمشكاة فى بيوت أمر الله بتطهيرها من الأنجاس الحسية والمعنوية ، كاللغو ورفث الحديث وأمر بذكره فيها وإخلاص العبادة له .

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : « المساجد بيوت الله فى الأرض تضىء لأهل السماء كما تضىء النجوم لأهل الأرض » .

وعن عمرو بن ميمون قال : أدركت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون : المساجد بيوت الله ، وحق على الله أن يكْرِم من زاره فيها .

(يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) أى ينزه اللهَ ويقدسه فى أول النهار وآخره ، رجال لاتشغلهم الدنيا وزخرفها ولا بيوعهم وتجاراتهم عن ذكر ربهم وهو خالقهم ورازقهم ، إذ يعلمون أن ما عنده خير لهم وأنفع مما بأيديهم ، فما عندهم ينفد، وما عند الله باق ، ويؤدون الصلاة فى مواقيتها على الوجه الذى رسمه الدين ، ويؤتون الزكاة المفروضة عليهم تطهيرا لأنفسهم من الأرجاس .

ونحو الآية قوله : « يـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ » الآية وقوله : « يـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ » .

ثم ذكر السبب فى شغل أنفسهم بالعبادة فقال :

(يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار) أى إنهم يخافون عقاب يوم تضطرب فيه الأفئدة من الهول والفزع وتشخص فيه الأبصار من الهلع والحيرة والرعب والخوف .

ونحو الآية قوله : « وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ » وقوله : « إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ » .

ثم بين مآل أمرهم وحسن عاقبتهم فقال :

(ليجزيهم الله أحسن ما عملوا) أى يفعلون هذه القربات من التسبيح والذكر وإيتاء الزكاة مع الخوف من عذاب يوم القيامة ـ ليثيبهم الله على حسناتهم التى عملوها ، فرضها ونفلها واجبها ومستحبها .

ونحو الآية قوله : « إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ، فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ، وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا » .

وفى قوله (أحسن ما عملوا) إيماء إلى أنه لايجازيهم على مساوىء أعمالهم بل يغفرها لهم .

(ويزيدهم من فضله) أى يجزيهم بأحسن الأعمال ويضاعف لهم ما يشاء كما قال : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا » وقال : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » وقال صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه : « أعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

ثم نبه إلى كمال قدرته وعظيم جوده وسعة إحسانه فقال :

(والله يرزق من يشاء بغير حساب) أى إنه تعالى يعطيهم غير أجزية أعمالهم من الخيرات ما لايفى به الحساب ، فهم لما اجتهدوا فى الطاعة ، وخافوا ربهم أشد الخوف ـ جازاهم بالثواب العظيم على طاعتهم وزادهم الفضل الذى لاغاية له لخوفهم من قهره وشديد عذابه .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠) .

شرح المفردات

السراب : ما يرى فى الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب ويجرى على وجه الأرض كأنه ماء ، والقيعة والقاع : المنبسط من الأرض ، والظمآن : شديد العطش . لجى : أى ذى لج (بالضم) واللج معظم الماء، والمراد بحر عميق الماء كثيره . يغشاه : أى يغطيه . لم يكد يراها : أى لم يقرب أن يراها فضلا عن أن يراها .

المعنى الجملى

بعد أن بين عز اسمه أحوال المؤمنين وأنهم فى الدنيا يكونون فى نور الله وبه يستمسكون بالعمل الصالح ، وفى الآخرة يفوزون بالنعيم المقيم والثواب العظيم ــ أردف ذلك ببيان حال أضدادهم وهم الكفار ، فذكر أنهم يكونون فى الآخرة فى أشد الخسران والبوار ، وفى الدنيا فى ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض ، وضرب لكلتا الحالين مثلا يوضحها أتم الإيضاح والبيان .

الإيضاح

(والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) شبه الأعمال الصالحة التى يعملها من جحدوا توحيد الله وكذبوا بهذا القرآن

ومن جاء به ويظنون أنها تنفعهم عند الله وتنجيهم من عذابه، ثم تخيب فى العاقبة آمالهم ويلقون خلاف ما قدروا - بالسراب يراه من اشتد به العطش فيحسبه ماء فيطلبه ويظن أنه قد حصل على ما يبغى، حتى إذا جاءه لم يجد شيئا - هكذا حال الكافرين يحسبون أعمالهم نافعة منجية لهم من بأس الله، حتى إذا جاءهم العذاب يوم القيامة لم تنفعهم ولم تغنهم من عقابه إلا كما ينتفع بالسراب من اشتد ظمؤه، واحتاج إلى ماء يروى غلته .

ثم بين شديد عقابه بقوله :

(ووجد الله عنده فوفاه حسابه) أى ووجد عقاب الله الذى توعد به الكافرين أمامه وعندئذ تغير ما كان يظنه من النفع العظيم إلى ضرر محقق فجاءته الزبانية تغتله وتسوقه إلى جهنم وتسقيه الحميم والغساق . ونحو الآية قوله : « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا » .

(والله سريع الحساب) لا يشغله حساب عبد عن حساب آخر .

وخلاصة ماسلف — إن الخيبة والخسران فى الآخرة لمن عملوا صالح الأعمال فى الدنيا كصلة الأرحام وإغاثة الملهوفين وقرى الأضياف ونحو ذلك . وظنوا أنها تنجيهم من عذاب الله ، وهم مع ذلك جاحدو وحدانية ربهم مكذبون لرسله ، فما مثلهم إلا مثل من اشتد أوامه ورأى السراب فخاله ماء وظن أنه قد وجد ضالته فسعى إليه ، حتى إذا جاءه لم يجد شيئا ورجع بخُفَّىْ حُنين .

هذه حالهم فى الآخرة ، أما حالهم فى الدنيا فكما قال :

(أو كظلمات فى بحر لجىّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب) أى ومثل أعمالهم التى عملت على غير هدى مثل ظلمات مترادفة فى بحر عميق ماؤه ، بعيد غوره ، يغطيه موج من فوقه موج من فوقه سحاب - فالظلمات هى أعمال الكافرين ، والبحر اللجىّ قلوبهم التى غمرها الجهل وتغشتها الحيرة والضلالة ،

فلا تعقل ما فى السكون من آيات ولا تسمع عظة الناصحين ، ولا تبصر حجج الله ، فتلك ظلمات بعضها فوق بعض .

قال الحسن : الكافر له ظلمات ثلاث : ظلمة الاعتقاد ، وظلمة القول ، وظلمة العمل ، وقال ابن عباس : هى ظلمة قلبه و بصره وسمعه .

والخلاصة — إن الكافر لشدة إصراره على كفره تراكمت عليه الضلالات ، حتى إن أظهر الدلالات إذا ذكرت عنده لايفهمها ، فقلبه مظلم فى صدر مظلم فى جسد مظلم .

(ظلمات بعضها فوق بعض) أى ماتقدم ذكره ظلمات متراكمة ، فإن البحر يكون مظلم القعر جدا بسبب غور الماء ، فإذا ترادفت الأمواج ازدادت الظلمة ، فإذا كان فوق الماء سحاب يغطى النجوم ويحجب أنوارها بلغت الظلمة حدا عظيما .

(إذا أخرج يده لم يكد يراها) أى إذا أخرج الناظر يده ، وهى أقرب ما يرى إليه ، لم يقرب أن يراها فضلا عن أن يراها .

(ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) أى ومن لم يرزقه الله إيمانا وهدى من الضلالة فما له هداية من أحد .

ونحو الآية قوله : « وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاء » وقوله : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » .

وخلاصة ذلك — من لم يوله الله نور توفيقه ولطفه فهو فى ظلمة الباطل لانور له .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ (٤٢) .

شرح المفردات

يسبح : أى ينزه ويقدس ، صافات : أى باسطات أجنحتها فى الهواء ، المصير : المرجع .

المعنى الجملى

لما وصف سبحانه قلوب المؤمنين بالنور والهداية وقلوب الكافرين بالظلمة ـ أردف ذلك بذكر دلائل التوحيد وساق منها ثلاثة .

الإيضاح

(١) (ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات) أى ألم تعلم بالدليل أن الله ينزهه آنا فآنا فى ذاته وصفاته وأفعاله جميع ما فى السموات والأرض من العقلاء وغيرهم ، تنزيها تفهمه أرباب العقول السليمة ؛ إذ كل المخلوقات فى وجودها وبقائها دالة على وجود خالق لها متصف بصفات الكمال منزه عن صفات النقص .

وخص التنزيه بالذكر مع دلالة ما فيهما على اتصافه بجميع أوصاف الكمال ، من جرّاء أن سياق الكلام لتقبيح شأن الكفار الذين أخلوا بالتنزيه ، فجعلوا الجمادات شركاء له سبحانه ، ونسبوا له اتخاذ الولد إلى نحو أولئك ، تعالى ربنا عما يقول الكافرون علوّا كبيرا .

كما ذكر الطير مع دخولها فى جملة ما فى الأرض ، من قِبل أنها غير مستقرة فيها ، ولاستقلالها ببديع الصنع وإنبائها عن كمال قدرة خالقها ولطف تدبير مبدعها ، فإن منح تلك الأجرام الثقيلة الوسائل التى تتمكن بها من الوقوف فى الجو وتتحرك كيف تشاء ، وإرشادها إلى طريق استعمالها بالقبض والبسط والتحريك يمينا وشمالا ـ حجة واضحة الدلالة على كمال قدرة الصانع المجيد ، وحكمة المبدع المعيد .

(كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون) أى كل مصلّ منهم ومسبح قد علم الله صلاته وتسبيحه، لايخفى عليه شىء من أفعالهم طاعتها ومعصيتها، محيط علمه بها ومجازيهم عليها.

وقد يكون المعنى - إن كل مصلّ ومسبح يعلم مايجب عليه من الصلاة والتسبيح الذى كلف به، وليس بالبعيد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التى لايكاد العقلاء يهتدون إليها.

انظر إلى النحل كيف تبنى بيوتها المسدسة التى لايتمكن من بنائها فطاحل المهندسين، وإلى العنكبوت كيف تفعل الحيل اللطيفة لاصطياد الذباب، وإلى الدب يستلقى فى ممر الثور، حتى إذا قرب منه ورام نطحه شبث ذراعيه بقرنيه ولا يزال ينهش مابين ذراعيه حتى يثخنه:

(ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير) أى إن لله تعالى ملك السموات والأرض وهو الحاكم المتصرف فيهما إيجادا وإعداما بدءا وإعادة، وإليه وحده مصيركم ومعادكم، فيوفيكم أجور أعمالكم التى عملتموها فى الدنيا، فأحسنوا عبادته واجتهدوا فى طاعته وقدموا لأنفسكم صالح الأعمال.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤).

شرح المفردات

يزجى : يسوق برفق وسهولة ، يؤلف : أى يجمع بين أجزائه وقطعه ، ركاما : أى متراكما بعضه فوق بعض ، الودق : المطر ، من خلاله : أى فتوقه التى حدثت بالتراكم ، واحدها خلل كجبال وجبل ، من جبال : أى من قطع عظام تشبه الجبال ، والسنا : الضوء ، يذهب بالأبصار : أى يخطفها لشدة ضوئه وسرعة وروده ، وهو كقوله فى البقرة « يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ » يقلب الله الليل والنهار : أى يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا فى قصر ذاك حتى يعتدلا و يغير أحوالها بالحر والبرد ، لأولى الأبصار : أى لأهل العقول والبصائر .

الإيضاح

(٢) هاتان الآيتان هما ثانى الدليلين على وحدانية الله وقدرته .

وخلاصتهما — ألم تعلم أيها الرسول الكريم أن الله يسوق السحاب بقدرته أول ماينشئه ، ثم يجمع بين ما تفرق من أجزائه ثم يجعل بعضه متراكما فوق بعض ، فينزل المطر من فتوقه ، وحينا يُنزل منه قطعا كبيرة من البَرد كأنها الجبال ، فيصيب بما ينزل منه من يشاء من عباده ، فيناله الخير والنفع العميم أو الضرر الشديد إذا كان فوق الحاجة ، و يصرفه عمن يشاء أن يصرفه ، وأن لهذا السحاب برقا يضىء بشدة وسرعة حتى ليكاد يخطف الأبصار ، وهـذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة ، إذ فيه توليد الضد من الضد ، ففيه توليد النار من الماء .

وانظر أيضا إلى اختلاف الليل والنهار وتقلبهما بزيادة أحدهما ونقص الآخر ، و إلى تغير أحوالها بالحرارة والبرودة ، إن فى هذا لعبرة لمن اعتبر ، وعظة لمن تأمل فيه ممن له عقل ، فهو واضح الدلالة على أن له مدبرا ومقلّبا لايشبهه شىء .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى : يؤذينى

ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلّب الليل والنهار » أخرجه البخارى ومسلم .

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) .

الإيضاح

(٣) هـذا هو ثالث الأدلة على التوحيد ، فقد استدل أوّلا بأحوال السماء والأرض ، وثانيا بالآثار العلوية ، وهنا استدل بأحوال الحيوان فقال :

(والله خلق كل دابة من ماء) أى والله خلق كل حيوان يدب على الأرض من ماء هو جزء مادته .

وخص الماء بالذكر من بين ما يتركب منه من المواد ، لظهور احتياج الحيوان إليه ، ولا سيما بعد كمال تركيبه ، ولامتزاج الأجزاء الترابية به .

ثم فصل أقسام الحيوان مما يدب على وجه الأرض فقال :

(فمنهم من يمشى على بطنه) كالحيات والسمك وغيرهما من الزواحف ، وسمى حركتها مشيا مع كونها تزحف زحفا ، إشارة إلى كمال القدرة ، وأنها مع عدم وجود آلة المشى كأنها تمشى .

(ومنهم من يمشى على رجلين) كالإنسان والطير .

(ومنهم من يمشى على أربع) كالأنعام والوحوش .

ولم يذكر سبحانه مايمشى على أكثر من ذلك كالعناكب وغيرها من الحشرات ؛ لدخوله فى قوله :

(يخلق الله ما يشاء) مما ذكر ومما لم يذكر مع الاختلاف فى الصور والأعضاء والحركات والطبائع والقوى والأفاعيل .

(إن الله على كل شىء قدير) أى إن الله على إحداث ذلك وخلقه وخلق ما يشاء من الأشياء ـ لذو قدرة فلا يتعذر عليه شىء أراده .

وعلى الجملة فاختلاف هذه الحيوانات فى الأعضاء والقوى ومقادير الأبدان والأعمار والأخلاق ـ لابد أن يكون بتدبير مدبر حكيم مطلع على أحوالها وأسرار خلقها ، لايعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، تعالى الله عما يقول الجاحدون علوا كبيرا .

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ، وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦) .

المعنى الجملى

بعد أن ساق سبحانه ما يدل على وجوده من أحوال السماء والأرض والآثار العلوية وأحوال الحيوان ـ ذكر هنا أن هذه وغيرها آيات واضحات دالة على وجود الخالق المدبر للكون لاخفاء فيها .

الإيضاح

(لقد أنزلنا آيات مبينات) أى لقد أنزلنا عليك دلائل واضحات على طريق الحق والرشاد ، لكن لايصل إلى فهمها إلا من أوتى بصيرة نيرة وفطرة سليمة تضىء له الفكر حتى يسير على نهج الحق و يبتعد عن الغى والضلال ، ومن ثم قال :

(والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) أى والله يرشد من يشاء إلى الطريق الذى لاعوج فيه ، وهو إخلاص العبادة له وحده والإنابة إليه .

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ

بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ؟ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ، قُلْ لَا تُقْسِمُوا ، طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) .

شرح المفردات

يتولى : أى يعرض ، مذعنين : أى منقادين ، مرض : أى فساد من أصل الفطرة يحملهم على الضلال ، ارتابوا : أى شكّوا فى نبوّتك ، يحيف : أى يجور ، الظالمون : أى الذين يريدون ظلم الناس وجحد حقوقهم ، ويخشى الله : أى فيما صدر منه من الذنوب فى الماضى ، ويتقه : أى فيما بقى من عمره ، جهد أيمانهم : أى أقصى غايتها، من قولهم : جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها ، تولوا : أى تتولوا (بحذف إحدى التاءين) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الأدلة الواضحة على توحيده وأتمّ بيانها، ثم ذكر أنه يهدى بها من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم ، أعقبه بذكر من لم يهتد بها وهم المنافقون

الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، فيقولون : آمنا بالله وبالرسول ثم يفعلون ضد ما يقولون ، فإذا دعوا ليحكم بينهم الرسول فيما يتنازعون فيه أبوا وخافوا أن يحيف عليهم ، والمؤمن الصادق الإيمان إذا ما دعى إلى الله والرسول قال سمعا وطاعة. ثم بيّن بعض أكاذيبهم التى يراءون بها ويدّعون الإخلاص فيها ، فمنها أنهم يحلفون أغلظ الأيمان إنهم مطيعون للرسول فى كل ما يأمرهم به ، حتى لو أمرهم بالخروج والجهاد لبّوا الأمر سراعا ، ثم أمر الرسول بنهيهم عن الحلف والأيمان ؛ لأن طاعتهم معروفة لاتحتاج إلى يمين ، وبأن يقول لهم : أطيعوا الله حقا لا رياء ، فإن أبيتم فإنما علىّ التبليغ وعليكم السمع والطاعة ، فإن أطعتمونى اهتديتم ، وإن توليتم فقد فعلت ما كلفت به ، وعلى الله الحساب والجزاء .

قال مقاتل : نزلت هذه الآية فى بشر المنافق دعاه يهودى فى خصومة بينهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا هو اليهودى إلى كعب بن الأشرف ، ثم تحاكما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحكم لليهودى فلم يرض المنافق بقضائه عليه السلام فقال نتحاكم إلى عمر رضى الله عنه ، فلما ذهبا إليه قال له اليهودى : قضى لى النبى صلى الله عليه وسلم فلم يرض بقضائه ، فقال عمر للمنافق : أكذلك ؟ قال بلى ، فقال مكانكما حتى أخرج إليكما ، فدخل رضى الله عنه بيته وخرج بسيفه فضرب به عنق المنافق حتى برد ، وقال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

الإيضاح

(ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين) أى ويقول هؤلاء المنافقون ، صدّقنا بالله وبالرسول وأطعنا الرسول ثم يخالفون ذلك فيعرضون عن طاعة الله ورسوله ضلالاً منهم عن الحق ، وما أولئك بالمؤمنين المخلصين الثابتين على الإيمان ، بل هم ممن فى قلوبهم مرض وقد مرنوا على النفاق يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم .

وخلاصة ذلك — لايدخل فى زمرة المؤمنين من يقول آمنا بالله والرسول وأطعنا ثم يعرض عما تقتضيه الطاعة و ينحاز إلى غير المؤمنين .

ثم بين هذا التولى بقوله :

(و إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون) أى و إذا دعى هؤلاء المنافقون إلى كتاب الله و إلى رسوله ليحكم بينهم فيما اختصموا فيه بحكم الله ـ أعرضوا عن قبول الحق واستكبروا عن اتباع حكمه ، لأنه لايحكم إلا بالحق .

ونحو الآية قوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا » .

(و إن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين) أى و إذا كانت الحكومة لهم لاعليهم جاءوا إلى الرسول مطيعين ، لعلمهم بأنه يحكم لهم ، لأنه لايحكم إلا بالحق ، فإذعانهم لم يكن عن اعتقاد أن حكمه الحق ، بل لأنه وافق هواهم ، ومن جرّاء هذا لما خالف الحق قصدهم عدلوا عنه إلى غيره .

ثم فصل ما يحتمل أن يكون هو السبب فى عدولهم عن قبول حكمه صلى الله عليه وسلم بقوله :

(أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟) أى أسبب إعراضهم عن المحاكمة إليه صلى الله عليه وسلم أنهم مرضى القلوب بالكفر والنفاق ؟ أم سببه أنهم ارتابوا وشكوا فى نبوته عليه السلام على ظهور أمرها ؟ أم سببه أنهم يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم فى الحكم ؟ .

وخلاصة ذلك — لايخرج أمرهم عن أن يكون فى القلوب مرض لازم بالكفر والنفاق ، أو عروض شك فى الدين ، أو خوف من أن يجور الله ورسوله عليهم وأيا كان الأمر فهو كفر وضلال ، والله عليم بما انطوت عليه قلوبهم من المرض .

ثم أبطل السببين الأولين وأثبت الثالث فقال :

(بل أولئك هم الظالمون) أى ليس العدول إلا للسبب الأول فحسب ، فهم ما عدلوا إلا لما فى قلوبهم من المرض والنفاق وظلمهم لأنفسهم بمخالفة أمر ربهم ومعصيتهم له فيما أمرهم به من الرضا بحكم رسوله صلى الله عليه وسلم فيما أحبّوا وكرهوا والتسليم لقضائه .

وبعد أن نفى عنهم الإيمان الحق بيّن صفات المؤمن الكامل فقال :

(إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون) أى ينبغى أن يكون قول المؤمنين إذا دعاهم الداعون إلى حكم الله وإلى حكم رسوله فيما بينهم وبين خصومهم - سمعنا كلامكم وأطعنا أمركم ، وأولئك هم الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل مخوف .

وبعد أن رتب الفلاح على هذا النوع من الطاعة أتبعه ببيان أن كل طاعة لله ورسوله موجبة للفوز فقال :

(ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) أى ومن يطع الله ورسوله فيما أمراه به وترك ما نهياه عنه ، ويخش الله فيما صدر منه من الذنوب فيحمله ذلك على الطاعة وترك المعاصى ، ويتقه فى مستأنف أموره ، فأولئك هم الذين وصفوا بكل هذا هم الفائزون برضا الله عليهم يوم القيامة ، والآمنون من عذابه .

ثم حكى سبحانه نوعا آخر من أكاذيب المنافقين بقوله :

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن) أى وحلفوا بالله جاهدين أيمانهم بالغين غايتها - لئن أمرتهم بالخروج للجهاد والغزو ليلبُّنَّ الطلب وليخرجُنّ كما أمرت .

والخلاصة — إنهم أغلظوا الأيمان وشددوها فى أن يكونوا طوع أمرك ورهن إشارتك وقالوا : أينما كنت نكن معك ، فإن أقمت أقمنا ، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا.

فرد الله عليهم وزجرهم عن التفوّه بهذه الأيمان الفاجرة وأمره أن يقول لهم :

(قل لاتقسموا) أى قل لهم : لاتحلفوا ، فإن العلم بما أنتم عليه لايحتاج إلى قسم و يمين لوضوح كذبه .

ثم علل النهى عن الحلف بقوله :

(طاعة معروفة) أى لاتقسموا لأن طاعتكم معروفة لنا ، فهى طاعة باللسان فحسب من غير مواطأة من القلب لها ، ولا يجهلها أحد من الناس .

ونحو الآية قوله : « يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » وقوله : « اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ » .

ثم هددهم وتوعدهم على أيمانهم الكاذبة وأنه مجازيهم على أعمالهم السيئة ، ولا سيما ذلك النفاق المفضوح فقال :

(إن الله خبير بما تعملون) أى إنه تعالى لاتخفى عليه خافية من ظاهر أعمالكم وخافيها ، فيعلم ما تظهرونه من الطاعة المؤكدة بالأيمان الكاذبة ، وما تبطنونه من الكفر والنفاق والعزيمة على مخادعة المؤمنين ونحو ذلك من أفانين الشر والفساد التى دبرتموها .

ولما نبه سبحانه إلى خداعهم وأشار إلى عدم الاغترار بأيمانهم ـ أمر بترغيبهم وترهيبهم مشيرا إلى الإعراض عن عقوبتهم بقوله :

(قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) أى مرهم باتباع كتاب الله وسنة رسوله ، وفى هذا إيماء إلى أن ما أظهروه من الطاعة ليس منها فى شىء .

ثم أكد الأمر السابق وبالغ فى إيجاب الامتثال به والحمل عليه بالترغيب والترهيب بقوله :

(فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم) أى فإن تتولوا عن الطاعة بعد أن أمركم الرسول بها ، فما ضررتم الرسول بشىء ، بل ضررتم أنفسكم ، لأنه عليه

ما أمر به من تبليغ الرسالة وقد فعل ، وعليكم ما أمرتم به من الطاعة ، فإن أنتم لم تفعلوا وتوليتم فقد عرّضتم أنفسكم لسخط الله وعذابه ، وإن أطعتموه فقد خرجتم من الضلال إلى الهدى ، فالنفع والضر عائدان إليكم .

(وإن تطيعوه تهتدوا، وما على الرسول إلا البلاغ المبين) أى وإن تطيعوا الرسول فيما أمركم به أو نهاكم عنه - تهتدوا إلى الحق الموصل إلى كل خير ، المنجّى من كل شر ، وما الرسول إلا ناصح وهادٍ ومبلغ لكم ، فإن أطعتموه لحظوظ أنفسكم أصبتم طريق الصواب ، وإن خالفتموه أوقعتم أنفسكم فى الهلكة .

والخلاصة — إن الرسول فعل ما يجب عليه من أداء الرسالة ، وقد بقى ما يجب عليكم أن تفعلوه .

ونحو الآية قوله : « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ » وقوله : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ » .

وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) .

المعنى الجملى

بعد أن بيّن أن من أطاع الرسول فقد اهتدى إلى الحق ، ومن اهتدى إلى الحق فجزاؤه دار النعيم - أردف ذلك بوعده الكريم بأنه سيجعل المؤمنين المطيعين لله ورسوله خلفاء فى الأرض ويؤيدهم بالنصرة والإعزاز ويبدلهم من بعد خوفهم من العدوّ أمنا فيعبدون الله وحده وهم آمنون ، ومن جحد هذه النعم من بعد ذلك فقد عصى ربه وكفر أنعمه .

روى الطبرانى والحاكم وابن مردويه عن أبىّ بن كعب قال : « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة ، فكانوا لايبيتون إلا فى السلاح ولا يصبحون إلا فيه ، فقالوا : ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لانخاف إلا الله ؟ » فنزلت الآية .

الإيضاح

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) أى وعد الله المؤمنين منكم المصلحين لأعمالهم - ليورثنهم أرض المشركين من العرب والعجم ، وليجعلنهم ملوكها وساستها ، كما استخلف بنى إسرائيل بالشام حين أهلك الجبابرة وجعلهم ملوكها وسكانها .

وقد وفى سبحانه بوعده فإنه لم يمت عليه السلام حتى فتح الله عليه مكة وخَيْبَر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأخذ الجزية من مجوس هَجَر ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هِرَقْل ملك الروم ، والمُقَوْقس فى مصر ، والنجاشى ملك الحبشة .

ولما قبض صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى قام بالأمر بعده الخلفاء الراشدون فنهجوا منهجه ، وافتتحوا كثيرا من المشرق والمغرب ومزقوا ملك الأكاسرة وملكوا خزائنهم واستعبدوا أبناء القياصرة ، وصدق قول رسوله : « إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » .

(وليمكننّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم) أى وليجعلن دين الإسلام راسخا قويا ثابت القدم ، ويعظم أهله فى نفوس أعدائه الذين يواصلون الليل بالنهار فى التدبير لإطفاء أنواره لتعفو آثاره .

(وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) أى وليغيرنّ حالهم مما هى عليه من الخوف إلى الأمن ، قال الربيع بن أنس : « كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة نحوا من عشر سنين يدعون إلى الله وحده وإلى عبادته وحده لاشريك له سرّا

وهم خائفون لايؤمرون بالقتال ، حتى أُمروا بعد بالهجرة إلى المدينة فقدموها فأمرهم الله بالقتال ، فكانوا بها خائفين يمسون فى السلاح و يصبحون فى السلاح فصبروا على ذلك ما شاء الله ، ثم إن رجلا من الصحابة قال يا رسول الله : أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لن تصبروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليس فيه حديدة ، فأنزل الله وعد الله الذين آمنوا » إلى آخر الآية .

ونحو الآية قوله : « وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

ثم أتبع ذلك بتعليل التمكين وما معه بقوله :

(يعبدوننى لايشركون بى شيئا) أى يعبدوننى غير خائفين أحدا غيرى .

(ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) أى ومن جحد هذه النعم فأولئك هم الذين أنكروا فضل المنعم بها وتناسوا جليل خطرها .

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧) .

شرح المفردات

معجزين فى الأرض : أى جاعلين الله عاجزا عن إدراككم وإهلاككم وإن هربتم فى الأرض جميعها .

المعنى الجملى

بعد أن بشر المؤمنين بأنه سيمكن لهم فى الأرض ويجعل لهم من بعد الخوف أمنا - أردف ذلك بأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة شكرا له على ما أنعم به عليهم، وإحسانا إلى عباده البائسين الفقراء كما أحسن إليهم بتبديل ذلهم عزة وضعفهم قوة، ثم أعقبه برفع استبعاد تحقق الوعد السابق، مع كثرة عَدد عدوهم وعُددهم، وبعدئذ ذكر أن مآلهم النار، وبئس القرار.

الإيضاح

(وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون) أى أقيموا أيها الناس الصلاة على الوجه الذى رسمه الدين فى مواقيتها ولا تضيعوها، وآتوا الزكاة التى فرضها على أهلها، لما فيها من الإحسان إلى الفقير والمسكين وذوى البؤس والحاجة وأطيعوا رسول ربكم فيما أمركم به ونهاكم عنه، لعل ربكم أن يرحمكم فينجيكم من شديد عذابه.

ثم بين أن الكافرين سيحل بهم النكال ولا يجدون مهربا مما أوعدهم به ربهم فقال:

(لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض) أى لا تظنن أيها الرسول أن الكافرين يجدون مهربا فى الأرض إذا أردنا إهلاكهم، بل نحن قادرون على أخذهم والبطش بهم متى أردنا، والكلام من وادى قولهم: (اسمعى يا جاره).

وبعدئذ بين مآلهم فى الآخرة فقال:

(ومأواهم النار ولبئس المصير) أى كما أنا سنضيق عليهم فى الدنيا وننكل بهم ولا يفلتون من عذابنا - سنجعل عاقبة أمرهم نارا تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى.

والخلاصة — إنه سيلحقهم سخطنا فى الدنيا وسينالهم الذل والصغار ، وسيكون مصيرهم فى الآخرة نارا وسعيرا وحميا وغساقا جزاء وفاقا ، إنهم كذبوا بآياتنا كذابا .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ، وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ ، وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ، ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ، طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ ، بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) .

شرح المفردات

ما ملكت أيمانكم : يشمل العبيد والإماء أى الذكران والإناث ، الحلم : بسكون اللام وضمها أى وقت البلوغ إما بالاحتلام ، وإما ببلوغ الخامسة عشرة سنة من حلم بفتح اللام ، تضعون : أى تخلعون ، الظهيرة : وقت اشتداد الحرّ حين منتصف النهار ، والعورات : أى الأوقات التى يختل فيها تستركم ، من قولهم : أعور الفارس : إذا اختلت حاله . جناح : أى إثم وذنب ، طوافون عليكم : أى يطوفون عليكم للخدمة والمخالطة الضرورية ، القواعد: واحدها قاعد ، وهى العجوز ، لا يرجون نكاحا أى لا يطمعن فيه لكبر سنهن ، والتبرج : التكلف فى إظهار ما يخفى من الزينة ، من قولهم : سفينة بارج ، إذا كان لا غطاء عليها .

المعنى الجملى

بعد أن نهى فيما سلف عن دخول الأجانب فى البيوت إلا بعد الاستئذان والتسليم على أهلها ، وبين أن فى ذلك الخير كل الخير لهم ، فإن لم يجدوا فيها أحدا رجعوا ؛ لما لذلك من كبير الأثر فى المجتمع الإسلامى ، بصيانة الآداب العامة ومنع القيل والقال وحفظ الأعراض والأنساب .

استثنى فى هذه الآيات دخول الأقارب بعضهم على بعض ودخول المملوكين على سادتهم ، وبين أن الاستئذان لا يكون فى جميع الأوقات ، بل فى ثلاث أوقات هى عورات لأرباب البيوت لما فيها من رفع الكلفة وقلة التحفظ فى الستر ، ثم ذكر أن النساء الطاعنات فى السن إذا لم يطمعن فى الزواج فلا حرج عليهن إذا لم يستعملن الزينة ، وعليهن أن يتعففن جهد الطاقة .

روى أن سبب نزول الآية «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث وقت الظهيرة إلى عمر رضى الله عنه غلاما من الأنصار يقال له مُدْلج، وكان عمر نائما فدق عليه الباب ودخل فاستيقظ وجلس فانكشف منه شىء ، فقال : لوددت أن الله تعالى نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا عن الدخول علينا فى هذه الساعة إلا بإذن ، فانطلق معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد الآية قد نزلت فخرّ ساجدا » وهذا أحد موافقات رأيه الصائب رضى الله عنه للوحى .

وقيل إن السبب ما روى من أن أسماء بنت أبى مرثد دخل عليها غلام كبير لها فى وقت كرهت دخوله فيه فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا فى حال نكرهها فنزلت الآية .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات : من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة

العشاء) أى لايدخل أيها المؤمنون فى بيوتكم عبيدُكم و إماؤكم ثلاث مرات فى ثلاثة أوقات من ساعات ليلكم ونهاركم إلا بإذن : قبل صلاة الفجر لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة ، وكل ذلك مظنة انكشاف العورة ، وحين تخلعون ثيابكم التى تلبسونها وقت الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، لأنه وقت خلع ثياب اليقظة ولبس ثياب النوم .

وخص هـــذه الأوقات الثلاثة ، لأنها ساعات الخلوة ووضع الثياب والالتحاف باللحاف .

وهكذا حكم حال الذين لم يبلغوا الحلم من أطفالكم .

ثم علل طلب الاستئذان بقوله :

(ثلاث عورات لكم) أى لأن هذه الأوقات الثلاثة ثلاث عورات لكم يختل فيها التستر عادة .

و بعد أن بين حكم هذه الأوقات الثلاث بين حكم ما عدا ذلك فقال :

(ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن) أى ليس عليكم معشر أرباب البيوت ولا على الذين ملكت أيمانكم من الرجال والنساء ولا على الذين لم يبلغوا الحلم من أطفالكم حرج ولا إثم فى غير هذه العورات الثلاث .

والخلاصـة — لاحرج ولا إثم على الناس أن يدخل عليهم مماليكهم البالغون وصبيانهم الصغار بغير استئذان بعد هـذه الأوقات الثلاث ـ أما من بلغ الحلم فإنه لايدخل على الرجل وأهله إلا بإذن على كل حال .

ثم علل الإباحة فى غيرها بقوله :

(طوافون عليكم بعضكم على بعض) أى هؤلاء المماليك والصبيان الصغار يدخلون ويخرجون على مواليهم وأقربائهم فى منازلهم غدوة وعشية بغير إذن ، لأنهم يخدمونهم ، أو لاحتياج الأقارب إليهم ، كما أن السادة والأقارب يطوفون على ذوى قرابتهم ومماليكهم إذا عرضت لهم حاجة إليهم .

ثم بين فضله على عباده فى بيان أحكام دينهم فقال :

(كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) أى ومثل هذا التبيين لتلك الأحكام يبين لكم شرائع دينكم وأحكامه ، والله عليم بما يصلح أحوال عباده ، حكيم فى تدبير أمورهم ، فيشرع لهم ما يصلح أحوالهم فى المعاش والمعاد .

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس : ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن (يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) الآية ، وقوله فى النساء : (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى) الآية ، وقوله فى الحجرات : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » .

وعن عكرمة عن ابن عباس أن رجلين سألاه عن الاستئذان فى العورات الثلاث التى أمر الله بها فى القرآن فقال : إن الله ستير يحب الستر ، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حجال فى بيوتهم ، فربما فجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيمه فى حجره وهو على أهله ، فأمرهم الله أن يستأذنوا فى تلك العورات ، ثم بسط الله عليهم الرزق فاتخذوا الستور واتخذوا الحجال فرأوا أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذى أمروا به .

ولما بين الله حكم الأرقاء والصبيان الذين هم أطوع للأمر وأقبل لكل خير - أتبعه بحكم البالغين الأحرار بقوله :

(وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم) أى وإذا بلغ الصغار من أولادكم وأقربائكم الأحرار سنّ الاحتلام وهو خمس عشرة سنة فلا يدخلوا عليكم فى كل حين الا بإذن لافى أوقات العورات الثلاث ولا فى غيرها ، كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه .

وذكر الله فى هذه الآية حكم الأطفال إذا بلغوا ولم يذكر حكم ما ملكت أيماننا مع أن ما قبلها فيه ذكر المماليك والأطفال - لأن حكم ما ملكت اليمين واحد كبارهم وصغارهم ، وهو الاستئذان فى الساعات الثلاث التى ذكرت فى الآية قبل .

ثم أكد نعمه عليهم ببيان أحكام دينهم بقوله :

(كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم) أى كما بين لكم ما ذكر غاية البيان ، يبين لكم مافيه سعادتكم فى دنياكم وآخرتكم ، وهو العليم بأحوال خلقه ، الحكيم فيما يدبر لهم .

ولما بين سبحانه حكم الحجاب حين إقبال الشباب أتبعه بحكمه حين إدباره فقال :

(والقواعد من النساء اللاتى لايرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة) أى والنساء اللواتى قعدن عن الولد كبرا ، وقد يئسن من التبعل فلا يطمعن فى الأزواج ، فليس عليهن إثم ولا حرج أن يخلعن ثيابهن الظاهرة كالملحفة والجلباب الذى فوق الخمار إذا كنّ لايبدين زينة خفية كشعر ونحر وساق لدى المحارم وغير المحارم من الغرباء .

وخلاصة ذلك — لاجناح على القواعد من النساء أن يجلسن فى بيوتهن بدرع وخمار ويضعن الجلباب ، مالم يقصدن بذلك الزينة وإظهار ما يجب إخفاؤه ـ هذا إذا لم يكن فيهن بقية من جمال تورث الشهوة ، فإن كان فيهن ذلك فلا يدخلن فى حكم الآية .

(وأن يستعففن خير لهن) أى وإن تعففن عن وضع جلابيبهن وأرديتهن ، فلبسنها كان ذلك خيرا لهن من خلعها ، لتباعدهن حينئذ عن التهمة ، ولقد قالوا : لكل ساقطة فى الحى لاقطة .

ثم توعد من يخالف تلك الأوامر فقال :

(والله سميع عليم) أى والله سميع بما يجرى بينهن وبين الرجال من الأحاديث ، عليم بمقاصدهن لاتخفى عليه خافية من أمرهن ، فاحذروا أن يسوّل لكم الشيطان مخالفة ما به أمر وعنه نهى .

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَامَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ، فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) .

شرح المفردات

الحرج لغة : الضيق ، ويراد به فى الدين الإثم ، ماملكتم مفاتحه : أى ما كان تحت تصرفكم من بستان أو ماشية بطريق الوكالة أو الحفظ ، والصديق : يطلق على الواحد والجمع كالخليط والعدو ، جميعا : أى مجتمعين ، أشتاتا : أى متفرقين ، واحدهم شتيت ، على أنفسكم : أى على أهل البيوت ، طيبة : أى تطيب بها نفس المستمع .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن المماليك والصبيان الدخول فى البيوت فى غير العورات الثلاث بلا استئذان ولا إذن من أهل البيت — ذكر هنا أنه لاحرج على أهل هذه الأعذار الثلاثة فى تركهم للجهاد وما يشبهه ، وذلك يستلزم عدم الاستئذان منه صلى الله عليه وسلم فلهم القعود عندئذ من غير استئذان ولا إذن ، كما لاحرج عمن ذكروا بعدهم فى الأكل من البيوت المذكورة فى الآية .

قال صاحب الكشاف : والكلام على هذا التفسير صحيح لالتقاء الطائفتين فى أن كلا منهما منفى عنه الحرج ، ومثاله أن يستفتى مسافر عن الإفطار فى رمضان وحاجٌّ مُفْرِد عن تقديم الحلق على النحر فتقول : ليس على المسافر حرج أن يفطر ولا عليك يا حاجّ أن تقدم الحلق على النحر .

قال الحسن : أنزلت الآية فى ابن أم مكتوم وضع الله عنه الجهاد وكان أعمى .

وقال مقاتل : نزلت فى الحارث بن عمرو ، وكان قد خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غازيا وخلف مالك بن يزيد على أهله ، فلما رجع وجده مجهودا فسأله عن حاله فقال : تحرجت أن آكل من طعامك بغير إذنك .

الإيضاح

(ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) أى ليس على هؤلاء الثلاثة إثم فى ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم ، قاله عطاء وزيد بن أسلم .

ونحو الآية قوله فى سورة براءة : « لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد من الحرج المنفى فى الآية الحرج فى الأكل ، ذلك أنه لما نزل قوله تعالى : «وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ» تحرّج المسلمون عن مؤاكلة الأعمى لأنه لايبصر موضع الطعام الطيب ، والأعرج لأنه لايستطيع المزاحمة على الطعام ، والمريض لأنه لايستطيع استيفاء الطعام فأنزل الله هذه الآية . والمعنى على هذه الرواية : ليس فى مؤاكلة الأعمى ولا ما بعده حرج .

(ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم) أى لاحرج عليكم أن تأكلوا من البيوت التى فيها أزواجكم وعيالكم ، ويشمل ذلك بيوت الأولاد ، لأن بيت الولد كبيته ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم «أنت ومالك لأبيك» وقوله: « إن أطيب مايأكل المرء من كسبه ، و إن ولده من كسبه » .

وفائدة ذكر قوله : (على أنفسكم) الإشارة إلى أن الأكل المذكور مع أنه لاحرج فيه لايخل بقدر من له شأن فقد كثر إقحام (النفس) فى ذوى القدر كقوله : «كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ» ولم يقل: كتب ربكم عليه الرحمة، وقوله فى الحديث القدسى « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى » ولم يقل : حرمت الظلم علىّ .

وذكر هذا الحكم وهو معلوم ، ليعطف عليه غيره فى اللفظ ، وليساويه ما بعده فى الحكم .

(أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخوانكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم) لما علم بالعادة أن هؤلاء تطيب نفوسهم بأكل من يدخل عليهم من الأقارب .

(أو ما ملكتم مفاتحه) عنى بذلك وكيل الرجل وقيّمه فى ضيعته وماشيته ، فلا حرج عليه أن يأكل من ثمر الضيعة ويشرب من لبن الماشية ولكن لايحمل ولا يدخر ، وهذا إذا لم يجعل له أجرا على ذلك ، فإن جعل له أجرا فلا يحل له أكل شىء منها .

(أو صديقكم) أى أو بيوت أصدقائكم الذين يصْدُقونكم المودة وتصدقونهم ، هذا إذا علم رضاهم بذلك بالإذن أو بشاهد الحال ، ولا فرق بينهم و بين غيرهم إذا وجد الإذن .

قال ابن زيد : هذا شىء قد انقطع ، إنما كان فى أوّله ولم يكن لهم ستور أبواب وكانت الستور مرخاة فربما دخل الرجل البيت وليس فيه أحد وربما وجد الطعام وهو جائع فسوغ له أن يأكل منه ، ثم قال ذهب ذلك اليوم ، البيوت فيها أهلها ، فإذا خرجوا أغلقوا اه .

وعلى هذا ، فالمعنى يجوز الأكل من بيوت هؤلاء وإن لم يحضروا إذا علم رضاهم به بصريح اللفظ أو بالقرينة وإن كانت ضعيفة .

وإنما خص هؤلاء بالذكر، لأنهم اعتادوا التبسط بينهم، والرضا فيهم محقق غالبا .

وعن جعفر الصادق رضى الله عنه . من عظم حرمة الصديق أن جعله الله تعالى من الأنس والثقة والانبساط ورفع الحشمة بمنزلة النفس والأب والأخ .

وقيل لأفلاطون : من أحب إليك : أخوك أم صديقك ؟ فقال لا أحب أخى إلا إذا كان صديقى ، ولكن أنّى هو ؟ فقد أثر عن هشام بن عبد الملك أنه قال : نلت ما نلت حتى الخلافة ، وأعوزنى صديق لا أحتشم منه .

ثم استأنف سبحانه حكما آخر من نوع ما قبله فقال :

(ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا) أى لا حرج عليكم أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين ، روى عن ابن عباس والضحاك وقتادة أنها نزلت فى بنى ليث ابن عمرو بن كنانة تحرّجوا أن يأكلوا طعامهم متفرقين ، وكان الرجل منهم يمكث طوال يومه لا يأكل حتى يجد ضيفا يأكل معه ، فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئا ، وربما قعد الرجل منهم والطعام بين يديه لا يتناوله إلى الرواح ، وقد تكون معه الإبل الحفّل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه ، فإذا أمسى ولم يجد أحدا أكل ، وفى مثل هذا يقول حاتم :

إذا ما صنعتِ الزاد فالتمسى له أكيلا فإنى لستُ آكله وحدى

وفى الحديث : « شر الناس من أكل وحده ، وضرب عبده ، ومنع رفده » وإنما ذم هذا لأنه بخل بالقِرى .

ثم شرع سبحانه يبين ما ينبغى رعايته حين دخول البيوت بعد أن ذكر الرخصة فيه فقال :

(فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم) أى فإذا دخلتم بيتا من هذه البيوت فليسلم بعضكم على بعض .

وفى التعبير عن أهل تلك البيوتات (بأنفسكم) إيماء إلى السبب الذى اقتضى إباحة الأكل من تلك البيوت ، وأنه إنما كان؛ لأن الداخل فيها كأنه داخل فى بيته لما بينهما من قرابة أو نحوها .

(تحية من عند الله مباركة طيبة) أي حيوا تحية ثابتة بأمره تعالى مشروعة من لدنه ، يرجى بها زيادة الخير والثواب ويطيب بها قلب المستمع .

وعن جابر بن عبد الله قال : « إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة » أخرجه البخاري وغيره .

روى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس قال : أوصاني النبي صلى الله عليه وسلم بخمس خصال قال : « يا أنس ، أسبغ الوضوء يزد في عمرك ، وسلم على من لقيك من أمتي تكثر حسناتك ، وإذا دخلت (يعني بيتك) فسلم على أهلك يكثر خير بيتك ، وصلّ صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك ، يا أنس ، ارحم الصغير ووقر الكبير تكن من رفقائي يوم القيامة » .

(كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون) أي هكذا يفصّل الله لكم معالم دينكم ، كما فصل لكم في هذه الآية ما أحل لكم فيها وعرفكم سبيل الدخول على من تدخلون عليه ، لكي تفقهوا أمره ونهيه وأدبه ، وبذا تفوزون بسعادة الدارين ويكون لكم المقام المحمود عند ربكم .

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٢) لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ، قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ، فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قَدْ يَعْلَمُ

مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ، وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ؛ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤) .

شرح المفردات

أمر جامع : أى خطب جلل يستعان فيه بأرباب التجارب والآراء كقتال عدو أو تشاور فى حادث قد عرض ، والتسلل : الخروج من البيت تدريجا وخفية ، واللواذ والملاوذة : التستر، يقال لاذ فلان بكذا، إذا استتر به ، والمخالفة : أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر فى حاله أو فعله ، فتنة : أى بلاء وامتحان فى الدنيا ، عذاب أليم : أى عذاب مؤلم موجع فى الآخرة .

المعنى الجملى

بعد أن أمر المؤمنين بالاستئذان عند الدخول أمرهم بالاستئذان حين الخروج ولا سيما إذا كانوا فى أمر جامع مع الرسول صلى الله عليه وسلم كتشاور فى قتال أحد أو فى حادث عرض ، و بيّن أن من يفعل ذلك فهو من كاملى الإيمان، ثم أمر رسوله أن يأذن لمن شاء منهم إذا استأذنه ، ثم أمر المؤمنين أن يبجلوا نبيهم ولا يسموه باسمه بل يقولوا يا نبى الله ، و يا رسول الله ، وليحذروا أن يخالفوا أمره وسنته وشريعته ، بل عليهم أن يزنوا أقوالهم وأفعالهم بأقواله وأفعاله ، فما وافق ذلك قُبل وما خالفه فهو مردود على فاعله وقائله كائنا من كان ، وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ » .

الإيضاح

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله و إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) أى ما المؤمنون حق الإيمان إلا الذين صدقوا الله ورسوله ،

وإذا كانوا مع رسوله على أمر يجمع جميعهم من حرب حضرت أو صلاة اجتمع لها أو تشاور فى أمر قد نزل ، لم ينصرفوا عما اجتمعوا له حتى يستأذنوا الرسول صلى الله عليه وسلم .

وهذا أدب على نهج سابقه ، فكما أرشدهم من قبل إلى الاستئذان حين الدخول ، أمرهم بالاستئذان حين الانصراف ، ولاسيما إذا كانوا فى أمر جامع ، روى الترمذى والنسائى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم ، فإذا أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة » .

ولما كان الإذن كالدليل على كمال الإيمان والمميز للمخلص من غيره أعاده مؤكدا بأسلوب أبلغ فقال :

(إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) أى إن الذين لا ينصرفون إذا كانوا معك أيها الرسول فى أمر جامع إلا بإذنك لهم ، طاعة منهم لله ولك ، وتصديقا بما أتيتهم به من عنده ــ أولئك هم المؤمنون حقا .

ولما ذكر ما يلزم المؤمن من الاستئذان أعقبه بما يفعله الرسول حينئذ فقال :

(فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم) أى فإذا استأذنوك لبعض ما يعرض لهم من مهامّ أمورهم فأذن لمن شئت منهم أن ينصرف لقضاء ما عرض له ، على حسب ما تقتضيه المصلحة التى تراها ، كما وقع لعمر رضى الله عنه حين خرج مع النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، حيث استأذن فى الرجوع إلى أهله فأذن له صلى الله عليه وسلم وقال له : ارجع فلست بمنافق .

(واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم) أى وادع الله أن يتفضل عليهم بالعفو عن تبعات ما بينه وبينهم ، إنه غفور لذنوب عباده التائبين ، رحيم بهم أن يعاقبهم عليها بعد توبتهم منها .

وفى هذا إيماء إلى أن الاستئذان و إن كان لعذر قوى ـ فيه بعض الملامة لما فيه من تقديم شئون الدنيا على أمور الآخرة ، كما أن فيه احتفالا برسوله صلى الله عليه وسلم إذ جعل الاستئذان للذهاب عنه ذنبا محتاجا إلى الاستغفار ، فضلا عن الذهاب بلا إذن ، ورتب الإذن على الاستئذان لبعض شأنهم لا على الاستئذان لأى أمر مَهْما كان ، مهمًّا كان أو غير مهم ، على أنه علق الإذن بالمشيئة .

و بعد أن ظهر فى هــذه السورة شرف الرسول ، ولا سيما فى هذه الآيات التى بهرت العقول ـ أردف هذا بما يؤكده فقال :

(لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) أى لاتقيسوا أيها المؤمنون دعاءه عليــه السلام إياكم بدعاء بعضكم بعضا فى المساهلة والرجوع من مجلسه بغير استئذان ، فإن هذا محرم عليكم .

ثم توعد المنصرفين خفية بغير استئذان فقال :

(قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا) أى قد يعلم الله الذين يخرجون متسللين من المسجد فى الخطبة واحدا بعد واحد من غير استئذان خفية مستترين بشىء ، و إن علمهم هذا إن خفى على الرسول صلى الله عليــه وسلم فلا يخفى على من يعلم السر والنجوى ومن لا يعزب عنه مثقال ذرة ، و يعلم الدواعى التى تحملهم على ذلك ، ولديه الجزاء على ما يفعلون ، وكان من المنافقين من يثقل عليه استماع الخطبة والجلوس فى المسجد فإذا استأذن أحد من المسلمين قام المنافق إلى جنبه يستتر به فأنزل الله الآية ، رواه أبو داود .

(فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) أى فليتق الله من يفعلون ذلك منكم ، فينصرفون عن رسول الله بغير إذنه ، أن تصيبهم محنة و بلاء فى الدنيا أو يصيبهم عذاب مؤلم موجع فى الآخرة ، بأن يطبع الله على قلوبهم فيتمادوا فى العصيان ومخالفة أمر الرسول ، فيدخلهم النار و بئس القرار .

والآية تعم كل من خالف أمر الله وأمر رسوله وجمد على التقليد من بعد ماتبين له الهدى وظهر له الصواب من الخطأ .

وبعد أن أقام الأدلة على أنه نور السموات والأرض ، ثم حذر كل مخالف لرسوله صلى الله عليه وسلم - ختم السورة ببيان أنه المالك للموجودات بأسرها خلقا وملكا وتصرفا وإيجادا وإعداما بدءا وإعادة ، فقال :

(ألا إن لله مافى السموات والأرض ، قد يعلم ما أنتم عليه) أى إنه تعالى مالك السموات والأرض وإنه عالم بما يعمل العباد كما قال : « وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذٰلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ » وقال تعالى : « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ؟ » .

ثم هدد وتوعد فقال :

(ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا) أى ويوم يرجع الخلائق إلى ربهم حين العرض والحساب يخبرهم بما فعلوا فى الدنيا من جليل وحقير وكبير وصغير كما قال : « يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ » وقال : « وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » .

وبعدئذ ذكر ما هو كالدليل على ما سلف بقوله :

(والله بكل شىء عليم) أى إنه سينبئهم بما عملوا فى حياتهم الأولى ، لأنه ذو علم بكل شىء وإحاطة به وهو موفٍّ كل عامل أجر عمله ، يوم يرجعون إلى حكمه ، إذ لا حكم يومئذ إلا هو .

عن عقبة بن عامر قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية فى خاتمة النور، وهو جاعل أصبعيه تحت عينيه يقول بكل شىء بصير» أخرجه الطبرانى وغيره ، قال السيوطى بسند حسن .

وصلّ ربنا على محمد النبى الأمى وعلى آله .

مجمل ما حوته السورة الكريمة من الأغراض والمقاصد

(١) عقوبة الزانى والزانية .

(٢) عقوبة قاذفى المحصنات الغافلات المؤمنات .

(٣) حكم قذف الزوجات .

(٤) قصص الإفك وبراءة أم المؤمنين عائشة .

(٥) آداب الزيارة .

(٦) أمر المؤمنين بغضّ الأبصار وحفظ الفروج .

(٧) نهى النساء عن إبداء زينتهن لغير بعولتهن الخ .

(٨) أمر المؤمنين بإنكاح الأيامى من الرجال والنساء ، فالمجتمع الإسلامى كأنه أسرة واحدة .

(٩) أمر من لم تتوافر له وسائل النكاح لعدم وجود المال أو سواه بالعفة حتى يغنيه الله .

(١٠) بيان أن الأعمال الصالحة التى يعملها الكافرون فى الدنيا لاتجدى لهم نفعا يوم القيامة ، بل تكون كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا.

(١١) الأدلة التى نصبها الله فى الأكوان علويها وسفليها شاهدة بوحدانيته .

(١٢) المنافقون يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم .

(١٣) وصف المؤمنين الصادقين .

(١٤) وعد الله عباده المؤمنين بأنه سيستخلفهم فى الأرض وينشر دينهم الذى ارتضى لهم .

(١٥) استئذان الموالى والأطفال فى أوقات ثلاث إذا أرادوا الدخول على أهليهم .

(١٦) رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض فى الجهاد .

(١٧) لاحرج فى الأكل من بيوت الآباء والأمهات الخ بلا إذن .

(١٨) نهى المؤمنين عن الانصراف من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كانوا معه فى أمر جامع .

(١٩) إباحة إذنه لهم إن شاء حين الطلب .

(٢٠) بيان أن مجلس الرسول مبجّل موقر وليس كمجلس المؤمنين بعضهم مع بعض .

ســـورة الفرقان

هى مكية إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة ، وهى ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، وعدد آيها سبع وسبعون ، ونزلت بعد سورة يس .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه سبحانه اختتم السورة السابقة بكونه مالكا لما فى السموات والأرض مصرفا له على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة مع النظام البديع والوضع الأنيق ، وأنه سيحاسب عباده يوم القيامة على ما قدموا من العمل خيرا كان أو شرا ، وافتتح هذه بما يدل على تعاليه فى ذاته وصفاته وأفعاله وعلى حبه لخير عباده بإنزال القرآن لهم هاديا وسراجا منيرا .

(٢) اختتم السورة السالفة بوجوب متابعة المؤمنين للرسول صلى الله عليه وسلم مع مدحهم على ذلك وتحذيرهم من مخالفة أمره خوف الفتنة والعذاب الأليم ، وافتتح هذه بمدح الرسول و إنزال الكتاب عليه لإرشادهم إلى سبيل الرشاد ، وذمّ الجاحدين لنبوّته بقولهم : إنه رجل مسحور ، و إنه يأكل الطعام و يمشى فى الأسواق إلى آخر ما قالوا .

(٣) فى كل من السورتين وصف السحاب و إنزال الأمطار و إحياء الأرض الجرز فقال فى السالفة : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِى سَحَابًا الخ » وقال فى هذه : « وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا الخ » .

(٤) ذكر فى كل منهما وصف أعمال الكافرين يوم القيامة وأنها لاتجزيهم فتيلا ولا قطميرا فقال فى الأولى : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ الخ » وقال فى هذه : « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا » .

(٥) وصف النشأة الأولى للإنسان فى أثنائهما فقال فى الأولى : « وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ » وفى الثانية : « وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢).

شرح المفردات

تبارك : من البركة ، وهى كثرة الخير لعباده بإنعامه عليهم و إحسانه إليهم كما قال « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » والفرقان : هو القرآن ، سمى بذلك لأنه فرق فى الإنزال كما قال : «وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ» على عبده : أي على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ووصفه بذلك تشريفا له بكونه فى أقصى مراتب العبودية ، وتنبيها إلى أن الرسول لايكون إلا عبدا للمرسل ، وفيه ردّ على النصارى الذين يدّعون ألوهية عيسى عليه السلام ، للعالمين : أى الثقلين من الإنس والجن ، فقدره : أى هيأه لما أعده له من الخصائص والأفعال :

المعنى الجملى

حوت هذه السورة توحيد الله و إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، و بيان صفات النبي ، والرد على من أنكروا نبوته صلى الله عليه وسلم ، ثم بيان أحوال يوم القيامة وما يكون فيها من الأهوال ، ثم ختمت بأوصاف عباده المخلصين الذى يمشون على الأرض هونا ، ثم ذكر جلال الله وتصرفه فى خلقه وتفرده بالخلق والتقدير .

الإيضاح

(تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) حمد سبحانه نفسه على ما نزله على رسوله من القرآن الكريم لينذر به الثقلين الجن والإنس ويخوفهم

بأسه ، وإنما ذكر الإنذار ولم يذكر التبشير مع أن الرسول مرسل بهما ، من قِبَل أن السورة بصدد بيان حال المعاندين المتخذين لله ولدا والطاعنين فى كتبه ورسله واليوم الآخر .

وخلاصة ذلك — تعالى الله عما سواه فى ذاته وصفاته وأفعاله التى من جملتها تنزيل القرآن المعجز الناطق بعلوّ شأنه ، وسمو صفاته ، وابتناء أفعاله على أساس الحكم والمصالح ، على عبده محمد صلى الله عليه وسلم لينذر به الناس ويخوفهم بأس الله ووقائعه بمن خلا قبلهم من الأمم .

ونحو الآية قوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ » .

ثم وصف سبحانه نفسه بأربع صفات من صفات الكبرياء :

(١) (الذى له ملك السموات والأرض) أى له السلطان القاهر عليهما ، فله القدرة التامة فيهما وفيما حوياه إيجادا وإعداما وأمرا ونهيا على حسب ما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح .

(٢) (ولم يتخذ ولدا) أى ولم يكن له ولد كما زعم الذين قالوا ذلك المسيح وعزير والملائكة ، كما حكى الله عنهم فى قوله : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ » وقوله : « أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ . أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ؟ » .

(٣) (ولم يكن له شريك فى الملك) أى ما كان لله شريك فى ملكه وسلطانه يصلح أن يعبد من دونه ، فأفردوا له العبادة وأخلصوها له دون كل ما تعبدون من دونه من الآلهة والملائكة والجن والإنس .

وفى هذا ردّ على مشركى العرب الذين كانوا يقولون فى تلبيتهم للحج : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك » .

(٤) (وخلق كل شيء فقدّره تقديرا) أي وأوجد كل شيء على حسب ما اقتضته إرادته المبنية على الحكم البالغة ، وهيأه لما أراد به من الخصائص والأفعال التي تليق به ، فأعد الإنسان للإدراك والفهم والتدبر في أمور المعاش والمعاد واستنباط الصناعات المختلفة والانتفاع بما في ظاهر الأرض وباطنها ، وأعد صنوف الحيوان للقيام بأعمال مختلفة تليق بها وبإدراكها .

والخلاصة — إن كل شيء مما سواه مخلوق مربوب ، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه ، وكل شيء تحت قهره وتسخيره وتقديره ، ومن كان كذلك فكيف يخطر بالبال أو يدور في الخلد كونه سبحانه والدًا له أو شريكا له في ملكه كما قال : « بَدِيعُ السَّمٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ؟ » الآية.

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ، وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣) .

الإيضاح

بعد أن وصف سبحانه نفسه بصفات العزة والجلال ، وبيّن وجه الحق في ذلك أردفه بحكاية أباطيل عبدة الأوثان الذين اتخذوا من دونه آلهة ، تعجيبا لأولى النهى من حالهم ، وتنبيها إلى خطأ أفعالهم ، وتسفيها لأحلامهم، فقد انحرفوا عن منهج الحق وركبوا المركب الذي لا يركبه إلا كل آفن الرأي ، مسلوب العقل .

وقد أبان سبحانه ما بها من النقص من وجوه متعددة :

(١) إنها لا تخلق شيئا ، والإله يكون قادرا على الخلق والإيجاد .

(٢) إنها مخلوقة والمخلوق محتاج ، والإله يجب أن يكون غنيا عن كل ماسواه .

(٣) إنها لاتملك لنفسها ضرا ولا نفعا ، فضلا عن أن تملك ذلك لغيرها ، ومن كان كذلك فلا فائدة فى عبادته و إجلاله وتعظيمه .

(٤) إنها لاتقدر على التصرف فى شىء ما ، فلا تستطيع إماتة الأحياء ولا إحياء الموتى و بعثهم من قبورهم ، ومن كان كذلك فكيف يسمى إلها، وتعطى له خصائص الآلهة من الخضوع لعظمته والإخبات لجلاله .

وعلى الجملة فعبدة الأصنام قد تركوا عبادة الخالق المالك لكل شىء المتصرف فيه بقدرته وسلطانه وعبدوا ما لايملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، وليس بعد هذا من حماقة ولا يرضى بمثله من له مُسكة من عقل ، ولا إثارة من علم.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيماً (٦) .

شرح المفردات

الافتراء:الاختلاق والكذب، من قولهم: افتريت الأديم ـ الجلد ـ إذا قطعته للإفساد ، جاءوا : أى أتوا ، والظلم : وضع الشىء فى غير موضعه ، إذ هم قد نسبوا القبيح إلى من كان مبرأ منه ، والزور : الكذب ، والأساطير : واحدها أسطار أو أسطورة كأحدوثة ، وهو ما سطره المتقدمون ، اكتتبها : أى أمر بكتابتها ، تملى عليه : أى تلقى عليه بعد اكتتابها ليحفظها ، بكرة وأصيلا : أى صباحا ومساء ، والمراد دائما .

المعنى الجملى

بعد أن تكلم أوّلا فى التوحيد ثم فى الرد على عبدة الأوثان - أردف ذلك بالرد على الطاعنين فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وقد قسموا مطاعنهم قسمين: مطاعن فى القرآن، ومطاعن فيمن نزل عليه القرآن.

روى أن هذه الآيات نزلت فى النضر بن الحرث إذ هو الذى قال هذه المقالة، وعنى بالقوم الآخرين عدّاسا مولى حويطب بن عبد العُزّى، ويسارا مولى العلاء بن الحضرمى، وأبا فُكَيْهَة الرومى، وكانوا من أهل الكتاب يقرءون التوراة ويحدثون أحاديث منها، فأسلموا، وكان النبى يتعهدهم ويختلف إليهم، فمن ثم قال النضر ما قال.

الإيضاح

(وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون) أى وقال الكافرون: إن هذا القرآن ليس من عند الله بل اختلقه محمد، وأعانه على ذلك جماعة من أهل الكتاب ممن أسلموا وكان يتعهدهم ويختلف إليهم: «تقدم ذكر أسمائهم» فيلقون إليه أخبار الأمم الغابرة، وهو يصوغها بلغته وأسلوبه الخاص.

فرد الله عليهم مقالهم فقال:

(فقد جاءوا ظلما وزورا) أى فقد وضعوا الأشياء فى غير مواضعها وكذبوا على ربهم، إذ جعلوا القرآن الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - إفكا مفترى من قبل البشر، وكيف يتقوّلون ذلك على الرسول وقد تحداهم أن يأتوا بمثله، وهم ذوو اللّسن والفصاحة والغاية فى البلاغة، فعجزوا أن يأتوا بمثله، ولو كان ذلك فى مُكْنتهم ما ادخروا وسعا فى معارضته، وقد ركبوا الصعب والذلول ليدحضوا حجته ويبطلوا دعوته، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم قد استعان فى ذلك بغيره لأمكنهم أيضا أن يستعينوا هم بغيرهم، فما مثله فى اللغة إلا مثلهم

فلما لم يفعلوا علم أنه قد بلغ الغاية التى لاتجارى وانتهى إلى حد الإعجاز - إلى أنه اشتمل على الحكم والأحكام التى فيها سعادة البشر فى معاشهم ومعادهم ، كما اشتمل على أخبار من أمور الغيب التى لا تصل إليها مدارك البشر ولا عقولهم .

وبعد أن حكى عنهم قولهم فى الافتراء بإعانة قوم آخرين عليه - حكى عنهم طريق تلك الإعانة .

(وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) أى وقال المشركون الذين قالوا إن هذا إلا إفك مفترى : ما هذا إلا أحاديث الأولين الذين كانوا يسطرونها فى كتبهم من نحو أحاديث رستم واسفنديار - اكتتبها من اليهود فهى تستنسخ منهم وتقرأ عليه ليحفظها غدوة وعشيا : أى قبل انتشار الناس وحين يأتون إلى مساكنهم ، وقد عنوا بذلك أنها تملى عليه خفية لئلا يقف الناس على حقيقة الحال ، وهذه جرأة عظيمة منهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ، وقد يكون مرادهم أنها تملى عليه دائما .

ثم أمره الله تعالى بإجابتهم عما قالوا بقوله :

(قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض) أى قل لهم ردّا وتحقيقا للحق : ليس ذلك كما تزعمون ، بل هو أمر سماوى أنزله الله الذى لا يعزب عن علمه شىء وأودع فيه فنون الحكم والأسرار على وجه بديع لاتحوم حوله الأفكار ، ومن ثم أعجزكم بفصاحته وبلاغته ، كما أخبركم فيه بغيبّات مستقبلة وأمور مكنونة لايوقف عليها إلا بتوفيق العليم الخبير .

وقد وصف سبحانه نفسه بإحاطة علمه بجميع المعلومات الخفية ، فالجلية المعلومة من باب أولى ، إيذانا بانطواء ما أنزله على أسرار مطوية عن عقول البشر .

(إنه كان غفورا رحيما) أى إنكم استوجبتم العذاب بمكايدتكم لرسوله ، لكنه لم يعجله لكم رحمة بكم ، رجاء توبتكم وغفران ذنوبكم ، ولولا ذلك لصبّ عليكم العذاب صبًّا .

وفى هذا إيماء إلى أن هذه الذنوب مع بلوغها الغاية فى العظم - مغفورة إن تابوا وأن رحمته واصلة إليهم بعدها ، فلا ييأسوا منها بما فرط منهم مع إصرارهم على ما هم عليه من معاداة الرسول ومخاصمته .

وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ، لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ، وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا (٨) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لاَ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولاً (١٦)

شرح المفردات

مسحورا : أى سُحر فاختلّ عقله ، الأمثال : أى الأقاويل العجيبة الجارية لغرابتها مجرى الأمثال ، فضلوا : أى فبقوا متحيرين فى ضلالهم ، أعتدنا : أى هيأنا والسعير : النار الشديدة الاشتعال ، رأتهم : أى إذا كانت منهم بمرأى الناظر فى البعد، من قولهم: دور تتراءى أى تتناظر، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «إن المؤمن والكافر

لاتتراءى ناراهما» أى لاتتقاربان بحيث تكون إحداهما بمرأى من الأخرى ، إذ يجب على المؤمن مجانبة الكافر والمشرك فى أمور الدين ، والتغيظ : إظهار الغيظ ، والمراد صوت التغيظ ، والزفير : إخراج النفَس بعد مده ، مقرنين : أى قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى السلاسل ، والثبور: الهلاك ، وجنة الخلد: هى التى لاينقطع نعيمها، مسئولا: أى جديرا أن يسأل و يطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون .

المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه شبهتهم فيما يتعلق بالمنزّل وهو القرآن ــ ساق شبهتهم فى المنزّل عليه ، وهو الرسول على الوجه الذى ذكره، ثم فنّد تلك الشبه و بين سخفها وأنها لاتصلح مطعنا فى النبى ، ثم حكى عنهم نوعا ثالثا من أباطيلهم وهو تكذيبهم بيوم القيامة ، ثم وصف ما أعد للكافرين فيه مما يشيب من هوله الولدان من نار تلظى يسمعون لها تغيظا وزفيرا ، ووضعهم فيها مقرنين فى الأصفاد ، ونداءهم إذ ذاك بقولهم يا ثبوراه ، ثم أتبع ذلك بما يؤكد حسرتهم وندامتهم بوصف ما يلقاه المتقون فى جنات النعيم : مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأن هذا ما وعدهم به ربهم الذى لاخلف لوعده .

الإيضاح

حكى الله هنا أن المشركين ذكروا خمس صفات للنبى تمنع النبوة فى زعمهم :

(١) (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ؟) أى أىّ شىء ميزه عنا وجعله يدعى النبوة مع أنه يأكل كما نأكل و يشرب كما نشرب .

(٢) (و يمشى فى الأسواق) لابتغاء الرزق كما نفعل ، فهو مثلنا فمن أين له الفضل علينا ؟ وهم يقصدون بذلك استبعاد الرسالة عنه ، لمنافاتها للأكل والشرب وطلب المعاش ، وكأنهم قالوا : إن صح مايدعيه ، فما باله لم يخالف حاله حالنا ولم يؤت ميزة دوننا .

وما هذا منهم إلا لضعف عقولهم وقصور إدراكهم ، فإن الرسل لم يمتازوا بأمور حسية ، بل بصفات روحية ، وفضائل نفسية فطرهم الله عليها توجب صفاء عقولهم وطهارة نفوسهم ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » .

(٣) (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا) أى فهلا أنزل إليه ملك من عند الله يكون شاهدا على صدق ما يدعيه ، ويرد على من يخالفه ، وشبيه بهذا ما قال فرعون عن موسى : « فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ » .

(٤) (أو يلقى إليه كنز) أى وهلا أنزل عليه كنز من السماء ينفق منه حتى لا يحتاج إلى المشى فى الأسواق لطلب المعاش .

(٥) (أو يكون له جنة يأكل منها) أى وهلا كان له بستان يعيش من غلته كما يعيش المياسير من الناس .

قال صاحب الكشاف : إنهم طلبوا أن يكون الرسول ملكا ، ثم نزلوا عن ملكيته إلى صحبة ملك يعينه ، ثم نزلوا عن ذلك إلى كونه مرفودا بكنز ، ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون له بستان يأكل ويرتزق منه اه .

وعن ابن عباس قال : إن عقبة بن ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحرث وأبا البحترى والأسود بن عبد المطلب وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ومنبّه بن الحجاج اجتمعوا ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعذروا منه ، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك ، قال فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالوا يا محمد : إنا بعثنا إليك لنعذر منك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا ، وإن كنت تطلب به الشرف فنحن

نسودك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مابى مما تقولون ، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل علىّ كتابا، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر حتى يحكم الله بينى وبينكم ، قالوا يا محمد : فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك فسل لربك وسل لنفسك أن يبعث معك ملكا يصدقك فيما تقول ويراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا من ذهب وفضة ويغنيك عما نراك تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا، فأنزل الله فى ذلك هذه الآية . أخرجه ابن اسحاق وابن جرير وابن المنذر .

وبعد أن حكى عنهم أوّلا أنهم يثبتون له كمال العقل ولكنهم ينتقصونه بصفات فى شئون الدنيا ــ حكى عنهم ثانيا أنهم نفوا عنه العقل بتاتا وادّعوا أنه مختل الشعور والإدراك وإلى هذا أشار بقوله :

(وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) أى وقال الكافرون الظالمون لأنفسهم بنسبتهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ما هو منه براء ، ويدل العقل والمشاهدة على نفيه عنه : ما تتبعون إلا رجلا سحر فاختلّ عقله فهو لا يعى ما يقول ، ومثله لا يطاع له رأى ، وهذا منهم ترقّ فى انتقاصه ، وأنه لا يصلح للنبوة بحال .

ولما ذكر ضلالاتهم التفت إلى رسوله صلى الله عليه وسلم مسليا له بقوله :

(انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) أى انظر واعجب لهم : كيف جرءوا على التفوّه بتلك الأقاويل العجيبة ، فاخترعوا لك صفات وأحوالا بعيدة كل البعد عن صفاتك التى أنت عليها ، فضلوا بذلك عن طريق الهدى

وصاروا حائرين لايدرون ماذا يقولون ولا ما يقدحون به فى نبوتك إلا مثل ذلك السُّخْف والهذَر .

والخلاصة — إن ما أتوا به لايصلح أن يكون قادحا فى نبوتك ولا مطعنا فيك فإن كان لهم مطعن فى المعجزات التى أتيت بها فليفعلوا ، ولكن أنى لهم ذلك ؟ .

ثم رد على ما اقترحوه من الجنة والكنز بقوله :

(تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا) أى كثر خير ربك، فإن شاء وهب لك فى الدنيا خيرا مما اقترحوا فإن أراد جعل لك فى الدنيا مثل ما وعدك به فى الآخرة ، فأعطاك جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وآتاك القصور الشامخة والصياصى التى لايصل إلى مثلها أكثرهم مالا وأعزهم نفرا ، ولكن الله لم يشأ ذلك لأنه أراد أن يكون عطاؤه لك فى الدار الباقية الدائمة ، لافى الدار الزائلة الفانية ، وإنما كانت خيرا مما ذكروا ؛ لكثرتها وجريان الأنهار من تحت أشجارها وبناء المساكن الرفيعة فيها ، والعرب تسمى كل بيت مشيد قصرا .

ثم انتقل من كلامهم فى البعث وأمر الساعة مبينا بذلك السبب فى عدم تصديقهم برسوله فقال :

(بل كذبوا بالساعة) أى ما أنكر هؤلاء المشركون ما جئتهم به من الحق ، وتقوّلوا عليك ما تقوّلوا ، إلا من قِبَل أنهم لايوقنون بالبعث ، ولا يصدقون بالثواب والعقاب .

والخلاصة — إنهم أتوا بأعجب من هذا كله وهو تكذيبهم بالساعة ، ومن ذلك لاينتفعون بالدلائل ولا يتأملون فيها .

ثم توعدهم وبين عاقبة أمرهم وما كتب لمثالهم من الخيبة والخذلان فقال :

(وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا . إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا . وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا . لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا

وادعوا ثبورا كثيرا) أى إنا أعددنا لمن كذب بالبعث والحشر والنشر والحساب والجزاء ، نارا تسعر وتتقد عليهم إذا كانت منهم بمرأى الناظر سمعوا لها صوتا يشبه صوت المتغيظ ؛ لشدة توقدها ، وصوت الزفير الذى يخرج من فم الحزين المتهالك حسرة وألما .

أخرج ابن المنذر وابن جرير عن عبيد بن عمير أنه قال : « إن جهنم لتزفر زفرة لايبقى ملَك مقرب ولا نبىّ مرسل إلا ترْعُد فرائصه ، حتى إن إبراهيم ليجثو على ركبتيه فيقول : رب لا أسألك اليوم إلا نفسى » .

وإذا ألقوا منها فى مكان ضيق قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال والسلاسل ، استغاثوا وقالوا يا ثبوراه : أى يا هلاكنا احضر فهذا وقتك ، فيقال لهم: لاتنادوا هلاكا واحـدا وادعوا هلاكا كثيرا : أى إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم منه واحدا ، إنمـا ثبوركم منه كثير ، لأن العذاب ألوان وأنواع ، ولكل منها ثبور لشدته وفظاعته .

وخلاصـة ذلك — إن الله قد أعدّ لمن كذب بالقيامة نارا مستعرة إذا كانت منهم بمرأى الناظر فى البعد سمعوا صوت غليانها ، وإذا طرحوا منها فى مكان ضيق وهم مقرنون فى السلاسل والأغلال تمنوا الهلاك ليسلموا مما هوأشد منه كما قيل: (أشد من الموت ما يتمنى معه الموت) فيقال لهم حينئذ : لاتدعوا هلاكا واحدا فإنه لايخلصكم بل اطلبوا هلاكا كثيرا لتتخلصوا به ـ والمقصد من ذلك تيئيسهم مما علقوا به أطماعهم من الهلاك ، وتنبيه إلى أن عذابهم أبدىّ لاخلاص لهم منه .

وبعد أن وصف عقاب المـكذبين بالساعة ، أردفه بمـا يؤكد الحسرة والندامة فقال :

(قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون ؟) أى قل لهؤلاء المـكذبين تهكما بهم وتحسيرا لهم على ما فاتهم : أهذه النار التى وصفت لكم خير أم جنة الخلد التى يدوم نعيمها ولا يبيد ، وقد وعدها من اتقاه فى الدنيا بطاعته فيما به أمره ونهاه .

ثم حقق أمرها تأكيدا للبشارة بقوله :

(كانت لهم جزاء ومصيرا) أى كانت هذه الجنة لهم جزاء أعمالهم فى الدنيا بطاعته ، وثوابا لهم على تقواه ، ومرجعا لهم ينتقلون إليه فى الآخرة .

ثم وصف مقدار تنعمهم فيها بقوله :

(لهم فيها ما يشاءون خالدين) أى لهم فى جنة الخلد ما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب ونحو ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وهم فيها خالدون أبدا بلا انقطاع ولا زوال .

(كان على ربك وعدا مسئولا) أى وهذا من وعد الله الذى تفضل به عليهم وأحسن به إليهم حين سألوه بقولهم : « رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ » .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ؟ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِى لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ، وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ، وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) .

شرح المفردات

ضل السبيل : فقده وخرج عنه ، والذكر : ماذكر به الناس على ألسنة أنبيائهم ، بورا : أى هالكين وهو لفظ يستوى فيه الواحد والجمع ، صرفا : أى دفعا للعذاب ، يظلم : أى يكفر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أعد لأولئك المكذبين بيوم القيامة من الشدائد والأهوال فى النار ودعائهم على أنفسهم بالويل والثبور - أردفه بذكر أحوالهم مع معبوداتهم من دون الله وتوبيخهم على عبادة من عبدوا من الملائكة وغيرهم، ثم ذكر أن معبوداتهم تكذبهم فيما نسبوه إليهم، ثم بين أن العابدين لا يستطيعون دفع العذاب عن أنفسهم ولا يجدون من يستنصرون به.

الإيضاح

(ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول ءأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ؟) أى واذكر لقومك تخويفا وتحذيرا يوم يحشر عابدو الأصنام والملائكة وعيسى وعزير وأضرابهم من العقلاء الذين عُبِدوا من دون الله، ثم يقال لأولئك المعبودين: ءأنتم دعوتم عبادى إلى الغىّ والضلال حتى دسوا أنفسهم وهلكوا، أم هم الذين ضلوا سبيل الرشد والحق، وسلكوا سبيل الهلاك بإعراضهم عن اتباع الرسول ؟ فأجاب المعبودون:

(قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا) أى قال المعبودون على طريق التعجب مما قيل لهم لأنهم ملائكة أو أنبياء معصومون، فما أبعدهم عن الإضلال: تنزهت ربنا مما نسب إليك هؤلاء المشركون، ما كان يليق بنا ونحن لا نتخذ من دونك أولياء أن ندعو غيرنا إلى ذلك، ولكنك ربنا أكثرت عليهم وعلى آبائهم نعمك ليعرفوا حقها ويشكروك فاستغرقوا فى الشهوات وانهمكوا فى اللذات وغفلوا عن ذكرك والإيمان بك، فكانوا من الهالكين، فحينئذ يقال لأولئك العابدين.

(فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا) أى فقد كذبكم أيها الكافرون من زعمتم أنهم أضلوكم ودعوكم إلى عبادتهم — فيما تقولون،

فما تستطيعون صرف العذاب عن أنفسكم ولا تجدون من ينصركم ويدفع عقاب الله عنكم .

والخلاصة — إنكم لا تستطيعون النجاة لا بالهرب ولا بالانتصار لأنفسكم ، فأنتم معذبون لا محالة .

ثم عمم سبحانه الحكم وخاطب جميع المكلفين فقال :

(ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا) أى ومن يكفر منكم أيها المكلفون فيعبد مع الله إلها غيره كهؤلاء الذين كذبوا بيوم القيامة — نذقه فى الآخرة عذابا كبيرا لا يقدر قدره ، ولا تصل العقول إلى معرفة كنهه .

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ، أَتَصْبِرُونَ ؟ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مقالتهم التى طعنوا فيها على رسوله بقولهم : مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق - زاعمين أن هذا مما لا ينبغى للرسول أن يفعل مثله - أردف ذلك بالاحتجاج عليهم بأن محمدا ليس بدعا فى الرسل ، فكلهم كانوا يفعلون فعله .

وفى هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتصبير له على أذاهم .

ثم بيّن أن سنته أن يبتلى بعض الناس ببعض ، فيبتلى الفقراء بالأغنياء والمرسلين بالمرسَل إليهم فيناصبوهم العداء ويؤذوهم ، ليعلم أيهم يصبر وأيهم يجزع ؟ وهو البصير بحال الصابرين وحال الجازعين .

الإيضاح

(وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) أى إن جميع من سبقك من الرسل كانوا يأكلون الطعام للتغذى به ، ويمشون فى الأسواق للتكسب والتجارة ولم يقل أحد إن ذلك نقص لهم يغض من كرامتهم ويزرى بهم ، ولم يكن لهم امتياز عن سواهم فى هذا ، وإنما امتازوا بصفاتهم الفاضلة وخصائصهم السامية وآدابهم العالية ، وبما ظهر على أيديهم من خوارق العادات ، وباهر المعجزات ، مما يستدل به كل ذى لب سليم وبصيرة نافذة على صدق ما جاءوا به من عند ربهم - فمحمد صلى الله عليه وسلم ليس بدعا من الرسل إذ يأكل ويمشى فى الأسواق ، وليس هذا بذم له ولا مطعن فى صدق رسالته كما تزعمون .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى » وقوله : « وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ » .

ثم سلى رسوله عن قولهم « أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا » بقوله :

(وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ؟) أى وامتحنا أيها الناس بعضكم ببعض ، فجعلنا هذا نبيا وخصصناه بالرسالة ، وهذا ملكا وخصصناه بالدنيا ، وهذا فقيرا وحرمناه من لذات الحياة ونعيمها ، لنختبر الفقير بصبره على ما حرم مما أعطيه الغنى ، والملك بصبره على ما أوتيه الرسول من الكرامة ، وكيف يكون رضى كل منهم بما أعطى وقسم له ، وطاعته ربه على حرمانه مما أعطى سواه - ومن جرّاء هذا لم أعط محمدًا الدنيا وجعلته يمشى فى الأسواق يطلب المعاش ، لأبتليكم وأختبر طاعتكم وإجابتكم إياه إلى ما دعاكم إليه وهو لم يرج منكم عرضا من أعراض الدنيا يرجو أن يناله ، ولو أعطيتها إياه لسارع كثير منكم إلى اتباعه ، طمعا فى أن ينال شيئا من دنياه .

والخلاصة — لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى حتى لا يخالفوا لفعلت ، لكنى أردت أن أبتلى العباد بهم وأبتليهم بالعباد فينالهم منهم الأذى و يناصبوهم العداء ، فاصبروا على البلاء فقد علمتم ما وعد الله به الصابرين .

(وكان ربك بصيرا) أى وربك أيها الرسول بصير بمن يجزع وبمن يصبر على ما امتحن به من المحن ، ويجازى كلا بما يستحق من عقاب أو ثواب ، روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « انظروا إلى أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هم فوقكم ، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم » .

اللهم اجعلنا من الصابرين على أذى السفهاء ، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وارزقنا من لدنك قناعة وغنى نربأ بهما عما فى أيدى الناس وثبت أقدامنا فى فهم كتابك ، و بلغنا ما نرجوه من إرشاد عبادك بما تقدّم لهم من نور يهتدون به إلى صراطك المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، وصل ربنا على محمد وآله .

تم تفسير هذا الجزء بحلوان من أرباض القاهرة قاعدة الديار المصرية ، لثلاث خلون من صفر سنة أربع وستين وثلثمائة بعد الألف من الهجرة النبوية ، ولله الحمد أولا وآخرا .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

الصفحة المبحث

الصفحة المبحث